

د. فؤاد زکریا

والنموذج

حسب الامر

الحج



٧٧

د • فؤاد ذكريا

العرب والنموذج الأمريكي

دار الفكر المعاصر
٤ ميدان الجمهورية - القاهرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى - مايو ١٩٨٠

الفصل الاول

التغلغل الاميركى فى عقولنا

على عكس مايقول الكثيرون ، أعتقد أن العالم يشهد فى السنوات الاخيرة مدأأمريكا واسع النطاق ، فهزيمة أميركا فى فيتنام قد تقادم عهدها ، والضربة التى تلقتها أميركا فى أفغانستان ثم ايران ضربة موجعة بلا شك ، ولكن فى مقابل ذلك أحرزت أميركا انتصارين على أعظم جانب من الخطورة : أحدهما فى الصين ، مفتاح الشرق الاقصى ، حيث أصبحت السياسية الصينية - فى الاونة الأخيرة - ذبلا للسياسة الاميركية ، بل أصبحت أشد منها حمسا فى محاربة جميع خصوم أميركا ، ووصلت الى حد محاربة حركات التحرر الوطنى أينما كانت . والآخر فى مصر ، مفتاح الشرق الاوسط ، حيث تسير السياسية الرسمية فى اتجاه التحالف الصريح مع أميركا على جميع الجبهات ، وحيث يتوقع الاميركيون من المعاهدة المصرية الاسرائيلية أن تكون الخطوة الاولى فى طريق

«السيطرة الشاملة على المنطقة ، والقضاء على الحركات المعارضة
لنفوذهم فى المناطق الأخرى المحيطة بالشرق الأوسط .

وربما قيل أن الاحداث الاخيرة قد أفقدت أميركا الصداقة
التقليدية المطلقة التى كانت تحملها لها بعض الدول العربية
المحافظة ، وأن هذا يدخل فى باب الخسارة بالنسبة الى النفوذ
الاميركى فى الشرق الأوسط . ولكن ينبغى أن نتنبه الى أن
السبب الذى تعلنه هذه الدول صراحة لغضبها من أميركا هو
أنها لاتحمى أصدقاءها بحزم كاف . كما أثبتت الاحداث
الايروانية بوضوح . وأبسط تحليل لهذا السبب يدلنا على أن
الغضب فى هذه الحالة لايرجع الى نزعة تحررية لدى هذه
الدول ، بقدر ما يرجع الى خيبة أملها فى تساهل أميركا
أو سلبيةتها . وبعبارة أخرى ، فلو كانت أميركا قد أظهرت
مزيدا من الحزم فى ايران (وكلنا نفهم ماذا يعنيه « الحزم » فى
هذه الحالة) . وتمكنت من حماية « أصدقائها » فى ذلك البلد ،
لما غضب منها أحد . وهكذا فان الصداقة المفقودة لاتحسب ،
فى الواقع ، ضمن خسائر أميركا ، لأنها تعبر عن وجهة نظر
أولئك الذين كانوا يتوقعون من أميركا أن تكون أشد بطشا ،
وكانوا يتمنون أن تكون قبضتها أكثر أحكاما - أى كانوا
يريدون من أميركا أن تكون أكثر « تأمركا » بالمعنى التقليدى
لهذا اللفظ .

هناك ، اذن ، حركة توسع أميركية فى الشرق الأوسط .
ولكننى أود أن أركز حديثى على منطقتنا ، ومن هذه الزاوية

أستطيع أن أقول أن آمال أميركا في المنطقة قد انتعشت الى أبعد حد في السنوات الاخيرة ، ان لم يكن بسبب أنتصاراتها الذاتية فعلى الأقل بسبب هزيمة القوى المناوئة لها .

ولكن الاهم من ذلك أن هناك مدا أميركيا داخل عقولنا ونفوسنا : فالنموذج الاميركي يفرض نفسه علينا بقوة متزايدة، والاسلوب الاميركي في الحياة ، الذى قد يرفضه الكثيرون في العلن ، يقابل في السر باعجاب متزايد ، والقوة الاميركية العسكرية والاقتصادية والاعلامية تبهر أعدادا متزايدة من العرب بل ان اجهزة الاعلام في أكبر دولة عربية ، وهى مصر ، أصبح يسيطر عليها أشخاص لاهدف لهم سوى تجميل صورة أميركا وعرضها بأزهى الالوان ، ولن أكون مبالغا اذا قلت أن هذه الاجهزة قد نجحت بالفعل فى اقناع الكثيرين بروعة هذه الصورة ، ووصل هذا الاقتناع الى حد الاقتناع السائد على أعلى المستويات بأن محاكاة النموذج الاميركي يمكن أن يحل جميع مشكلات بلاد كمصر ويدفعها بخطوات سريعة الى الامام مادام هذا النموذج قد جعل من أميركا ذاتها أعظم وأقوى دول العالم فى مائتى سنة فقط .

لقد أصبحت « الوصفة » غاية فى البساطة : أميركا بنت نفسها فى قرنين من الزمان ، فأصبحت أعظم بلاد العالم . اذن فاتبعنا للنموذج الاميركي سيجعلنا بدورنا عظماء متقدمين، وسينقلنا من الفقر الى الغنى ، ومن الضعف الى القوة .

هذه هى العقيدة الجديدة التى لاتوجد فقط فى عقول

بعض الزعماء ، بل تتسرب بشتى الوسائل الى عقول الناس العاديين . ولو تأملنا المحيطين بنا من الناس ، لوجدنا نسبة كبيرة منهم تؤمن ، داخليا على الاقل ، بفعالية هذه « الوصفة » وتقف مشدوهة ، أمام عظمة النموذج الاميركى ، وتتمنى فى قرارة نفسها لو أستطعنا أن نحاكيه فى مجتمعاتنا .

هذا المد الاميركى الزاحف ، على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى ، وعلى المستوى الفردى فى عقول الناس ونفوسهم ، هو الذى أقنعنى بضرورة الكتابة من أجل تحليل النموذج الاميركى تحليلا موضوعيا ، وايضاح أبعاده للانسان العربى حتى يتخذ موقفه من هذه المسألة الحيوية بوعى وتبصر ، دون أن ينجر فى تيار الدعاية أو يغرق فى خضم التضليلات .



وليعذرني القارئ، اذا بدأت هذا التحليل بتقديم نفسى من الزاوية المطروحة فى صفحات هذا الكتاب ، أعنى من حيث علاقتى الشخصية بأميركا . فكاتب هذه السطور قضى فى الولايات المتحدة خمس سنوات من أخصب فترات حياته، وفيها أنجب اثنين من أبنائه الثلاثة ، وألف اثنين من أعز كتبه اليه . وغى أميركا يعيش شقيق له مهاجر حصل على جنسيتها ، وما زالت علاقاته الشخصية بكثير من الاصدقاء الاميركيين تحمل كل سمات الود والوفاء . وليس فى تاريخ كاتب هذه السطور انتماء الى اية هيئة أو حزب معاد بطبيعته ، وبحكم أيديولوجيته ، لاميركا .

هذا التقديم الشخصي بدا لى ضروريا حتى يسدرك
القارىء الروح التى أكتب بها هذا التحليل . ذلك لان من السهل
الاعتراض على شهادة من يحكم على أميركا من منطلق عدائى ،
ومن يرفض أيديولوجيتها رفضا مبدئيا دون أن يعايشها
أو ينغمس فى دروب حياتها . لكننى أردت أن أطمئن القارىء،
منذ البداية ، الى أنى لن أتخذ وجهة نظر معادية بلاتفاهم ، والى
أننى عرفت أميركا عن قرب ، ومن حقى أن أدلى عنها بشهادتى
فى هذه الايام التى يطرح فيها النموذج الاميركى نفسه علينا
بقوة والحاح .

من طبيعة أميركا انها بلد يدعو الى الانبهار . انها بلد
جمع فى داخله أكبر كمية من « أفعل التفضيل » : من أقوى ،
وأغنى ، وأحدث من كل بلاد العالم . كل شىء فيها أضخم ،
وأسبق ، وأعظم مما تجده فى أى بلد آخر . أنها البلد الذى
وصلت فيه سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتسخيرها لخدمته ،
وتأكيد سيادة العقل البشرى على العالم المادى وقدرته على
تشكيله وفقا لغاياته ، الى حد يفوق ما كان يحلم به الفلاسفة
والادباء وأصحاب « المدن الفاضلة » على مر التاريخ . هذه
حقيقة لا يقدر على أنكارها فى عالمنا المعاصر أحد .

ولكن القضية التى اود ان أدافع عنها ، فى هذه الدراسة
هى :

أولا : ان النموذج الاميركى فريد فى نوعه ، حدث مرة
واحدة ولا يقبل التكرار .

ثانيا : ان هذا النموذج الاميركى ، الذى يدعو حقا الى الانبهار ، ملئ بالعيوب الذاتية .

ثالثا : ان هذا النموذج لا يصلح لاي بلد فى العالم الثالث ، ولا لاي بلد فى العالم العربى بوجه خاص .

* * *

قلت من قبل ان المد الاميركى يزحف ، لا الى سياستنا واقتصادنا فحسب ، بل الى عقولنا أيضا . قد نحمل على أميركا حين ينكشف دورها فى مساندة إسرائيل بصورة مفضوحة ، ولكن فى عقول الكثيرين منا اعجابا صامتا بها ، مقرونا بالرهبة والانبهار .

وفى اعتقادى أن الاعجاب المفرط بأميركا يظهر ، فى عالمنا العربى (وربما فى جميع بلاد العالم الثالث) بين الفئات الآتية :

١ - ان هناك أولا أصحاب المصالح المباشرة . ولا أعنى بذلك فقط أولئك الذين ترتبط مكاسبهم الاقتصادية بأميركا ، كأصحاب التوكيلات والشركات المتعاملة مع أميركا ، بل أعنى أيضا أولئك الذين يؤمنون بأن أعمالهم ، حتى ولو لم تكن ترتبط مباشرة بأميركا ، لاتزدهر الا فى جو يسوده الود والوثام مع هذا البلد .

فهؤلاء يعتقدون أن ارتباط بلادهم بأميركا يهينهم لهم أفضل مناخ يستطيعون فيه أن يمارسوا نشاطهم الاقتصادى -

الذى هو عادة نشاط حر ذو طبيعة رأسمالية - وهم آمنون على مصالحهم . وكثيرا ماتجد هؤلاء يبررون مواقفهم بشتى التبريرات التى قد تغلف بقشرة معنوية أو أخلاقية أو حتى دينية ، ولكن من وراء هذا كله توجد المصالح المباشرة .

هذه الفئة تتخذ موقفا صريحا ، واضحا ، لا يستطيع أحد أن يلومها عليه ، مادام ينسجم مع أهداف الحياة التى اختارتها لنفسها .

٢ - أما الفئة الثانية فينتمى اليها أشخاص يتسمون بانحراف الوعى الاجتماعى والاخلاقى ، فتطغى مشاعرهم ورغباتهم الانانية على تقييمهم للنهط الاميركى فى الحياة . هؤلاء قد لا يكونون أصحاب مصالح مباشرة مع الاميركيين ، كالفئة السابقة ، ولكنهم ينظرون الى أميركا على أنها مرادفة للترف ، والمتعة الاستهلاكية ، والمستوى المعيشى المرتفع ، والسيارات الفارهة ، والاجهزة الالكترونية الراقية . ومعظم أفراد هذه الفئة من المهنيين ، ولكننا قد نجد بينهم عمالا فنيين ، أو حتى مجموعات تنتمى الى فئات أدنى . هؤلاء جميعا تتجه أمانيتهم وتطلعاتهم الى تحقيق النموذج الاميركى فى حياتهم الخاصة ، وينفرون من أى نموذج آخر باعتباره مرادفا للقتشفس والاقتصار على الضروريات والحرمان من متع « الحياة اللذيذة » .

وتتسم هذه الفئة بأنها لاتطرح على نفسها اسئلة من نوع : هل هذا الرخاء الاستهلاكى الذى قد يجلبه النموذج

الاميركى لهم ، يمكن أن يصل الى الجميع ، حتى الفقراء من الناس ؟ ألن يغدو الفقراء أشد فقرا ؛ ويزداد حرمانهم بقدر مايزداد أستمتاع الفئة المميّزة فى المجتمع ؟ هل ينجح النمط الاميركى فى الحياة ، حين يطبق على بلد متخلف أو محدود الموارد ، فى حل مشكلات فئات المجتمع كلها ، أم أنه يرضى فئة محدودة الى أقصى حد ، على حساب أوسع فئات المجتمع ؟ هذه اسئلة لا تطرحها الفئة التى نتحدث عنها من المعجبين بالنمط الاميركى . وليس معنى عدم طرحها لهذه الاسئلة أنها دائما غير واعية بها ، بل أننى أعرف - من تجربتى الشخصية - حالات كثيرة لأشخاص لديهم أدراك كامل للتمييز الصارخ الذى يجلبه الاخذ بالنموذج الاميركى ، ومع ذلك فانهم يتعلقون به أشد التعلق لانهم ، ببساطة ، لا يكتراثون بمصير الفئات الأخرى ، ولا يضيرهم على الإطلاق ان ينعموا على حساب غيرهم . ان لسان حال كل منهم يقول : مادامت مشكلتى الشخصية قد حلت ، ففيم يهمنى الآخرون ؟

٣ - وتأتى بعد ذلك فئة أولئك الذين أرتبطت حياتهم فى وقت ما ، بأميركا ، أعنى أولئك الذين تلقوا العلم فيها ، أو قاموا بزيارات لها . وهؤلاء تعود نسبة كبيرة منهم الى بلادها وقد أنطبعت بالطابع الاميركى فى تعاملها مع الناس ، واخذت تستخدم التعبيرات الاميركية فى لغتها والحركات الاميركية فى سلوكها ، بل أن أعدادا منهم تعود حاملة معها تحيزات الاميركيين المريضة ذاتها . فقد عرفت من العرب المقيمين فى أميركا أناسا كانوا يغيرون المبنى الذى يقيمون فيه لو سكنه

زنجى ، حتى لو كان ذا مركز اجتماعى محترم ، وكان عدد منهم يردد نفس الحجج التى يرددوها غلاة المتعصبين الاميركيين عن « الملونين » !

ولحسن الحظ أن بلادنا تضم عددا غير قليل من خريجي الجامعات والمعاهد الاميركية ، ممن لا يكتفون بالمشاهدات السطحية ولا ينجرفون وراء التحيزات الضيقة ، وانما تنفذ بصيرتهم الى ما وراء المظهر السطحى البراق ، ومن ثم فإنهم يحتفظون بموضوعيتهم طوال اقامتهم وبعد عودتهم . والعامل الذى يحدد الفارق بين هؤلاء واولئك هو مدى الوعي الذى يكون الدارس فى اميركا أو الزائر لها مسلحا به . ومن هنا كنا نجد نسبة كبيرة ممن دخلوا اميركا فى مقتبل أعمارهم ، بغير وعى سياسى واجتماعى متماسك ، يجرفهم التيار فى طياته ، ويعودن الينا بمظهر اميركى وعادات وحركات وأيماءات اميركية ، ويحملون معهم ، قبل هذا وذاك ، أعجابا غير مشروط ، متغلغلا فى أعماق تلافيف أمخاخهم ، بالنموذج الاميركى فى جميع المجالات .

٤ - أما الفئة الاخيرة فهم أولئك الذين يتأثرون بالصورة الاعلامية البراقة للحياة الاميركية . وفى « الثقافة العالمية » التى تولدت عن الثورة المعاصرة فى وسائل الاعلام . تحتل نواتج الاعلام الاميركى موقع الصدارة . وهكذا تصدر اميركا الى بلاد العالم - وبخاصة العالم الثالث - أفلامها السينمائية ومسلسلاتها التلفزيونية واسطواناتها ورقصاتها وازياءها . وفى هذه النواتج الاعلامية والثقافية تنعش -

بطريقة قد لاتكون مقصودة أحيانا ، ولكننى أرجح أنها مقصودة فى أغلب الاحيان - صورة براقاة للحياة الاميركية ، تمر فى الفيلم أو الحلقة التلفزيونية مرورا عابرا ، ولكنها تؤثر تأثيرا بالغا - على المستوى الشعورى واللاشعورى - فى المشاهدين ، ولاسيما اذا كان الطابع الغالب على حياتهم هو الحرمان . وبمضى الوقت تترسب فى أذهانهم صورة أمريكا الضخمة ، الفخمة ، المترفة ، القادرة على كل شئ ، والتي لايقف فى وجهها شئ ، ويكون لهذه الصورة حتما تأثيرها فى وعيهم الاجتماعى واختياراتهم السياسية .

هذه الفئة الاخيرة ، الخاضعة للتضليل الاعلامى المنهجى المدروس ، تؤلف الشطر الاكبر من أنصار أميركا فى بلادنا ، ولكنها فئة يستطيع المرء أن يتفاهم معها دون أن يخشى من أن تطغى عليها مصالحها أو أنانياتها أو تحيزاتها . ومن ثم فإن حديثي موجه أساسيا الى أفراد هذه الفئة ، وان كنت آمل بطبيعة الحال أن يمعن النظر فيه بعض أفراد الفئات الأخرى على الأقل . ففى اعتقادى أن عرض الصورة كاملة ، ومن كافة جوانبها ، يمكن أن يفتح امام الكثيرين أبوابا للتفكير ولمراجعة آرائهم السابقة . وهذا أقصى ما آمل فيه : أن يعيد المعجبون المفتونون بالنمط الاميركى النظر فى أفكارهم ، وان يراجعوا موقفهم فى إطار ما سيقدم اليهم من حقائق آمل أن تكون موضوعية بقدر ما أستطيع ، حتى يتبينوا بأنفسهم ، فى النهاية ، ان كان هذا النمط هو الذى يصلح لمجتمعاتنا ، أم أنه سيكون عائقا فى وجه تقدمنا ، فيما لو أصبح هو السائد بيننا ؟

الفصل الثانى

أميركا ظاهرة فريدة لن تتكرر

الى المؤمنين بمنطق «ان أميركا بنت نفسها حتى أصبحت الدولة العظمى فى مائتى عام ، فلنفتح لها أبوابنا حتى نضمن لانفسنا تقدما مماثلا » - الى هؤلاء أقول أن الظاهرة الاميركية فريدة غير قابلة للتكرار ، وانها حدثت نتيجة لتضافر عدد من الظروف التى يستحيل أن تتجمع مرة أخرى فى مكان آخر أو فى زمان مختلف .

هذه الظروف التى لاتقبل التكرار ، والتى جعلت من أميركا « الدولة الاعظم » فى العصر الحديث ، هى :

أولا : أميركا قارة تنتمى الى العالم الجديد . وهذه فى ذاتها حقيقة أساسية تحكمت فى تحديد مركز أميركا وسط دول العالم منذ البداية : فالعالم القديم كان قد استهلك منذ الوف السنين ، ونضبت موارده عبر الحضارات التى تعاقبت عليه . أما أميركا فكانت ارضا بكرأ أكتشفت منذ أقل من خمسة قرون ، ولم يبدأ استغلالها الحقيقى الا منذ ثلاثة قرون ، وربما اثنين . وهى لم تكن أرضا بكرأ فحسب ، بل كانت قارة كاملة غنية بالموارد الطبيعية الى حد مذهل ، تجاورها قارة أخرى كاملة تكون « ساحتها الخلفية » ، وتخضع لاستغلالها خضوعا مباشرا . وفى هذا الصدد نستطيع تشبيهه

أميركا بكنز هائل ظل مخفيا الوف السنين ، ينتظر صاحب
الحظ السعيد الذى يعثر عليه ، ولم يكتشف الا بعد أن كانت
الكنوز المعروفة قد أشبعت أستهلاكا .

ولقد كان الوقت الذى اكتشف فيه هذا الكنز الجبار وقتا
فريدا بدوره ، اعنى عصر النهضة الاوربية ومطلع العصر
الحديث ، ذلك العصر الذى بدأت فيه أوربا تتطلع الى السيطرة
على الطبيعة عن طريق العلم والتكنولوجيا ،.والذى نادى فيه
مفكروها وفلاسفتها الكبار بأن يصبح البشر « سادة الطبيعة
وملاكها » ، . وأن يكون العلم للسيطرة ، لا للمعرفة فحسب ، .
فى لحظة الطموح الفريدة هذه وفى العصر الذى خرج فيه
الاوروبيون من ظلام العصور الوسطى الطويل وتفتحت أمامهم
آمال وتطلعات هائلة ، وفى الفترة التى تخلص فيها الانسان
من عبودية الاقطاع ، وانتقل الى التحرر والطموح الرأسمالى
.وأتاح له علومه الجديدة ومراجعتة الجذرية لتنظيماته
الاجتماعية إمكانات للتقدم بغير حدود . . فى هذه اللحظة
.بالذات ، أكتشفت أميركا . .

وهكذا تضافرت عوامل فريدة فى خلق الظاهرة الاميركية:
أرض مليئة بالخيرات التى لم تكد تمس ، يهبط عليها فجأة
مجموعة من البشر المقتمين الى حضارة بلغت أوج نهوضها
وتفاؤلها ، ويحملون معهم كل خبرات العالم القديم وتراثه
العلمى والفكرى ، وطموح الانسان الحديث الى السيطرة على
الطبيعة وتشكيل حياة جديدة لنفسه . واذا كانت التقاليد
الاوروبية قد وقفت عائقا ، الى حد ما ، فى وجه هذا الطموح
فها هى أرض جديدة لاحدود لاتساعها وإمكاناتها ، تفتح

أبوابها على مصراعيها امام الانسان الاوربى وهى تبدو أمامه
بلا تاريخ .. ولأصاحب ..

**ثانيا : ولكن هل كانت هذه الارض حقا بلاتاريخ ، وبلا
صاحب ؟ من الحقائق التى يعرفها الجميع أن هذه الارض كان
يسكنها شعب مسالم ، ادت به عزلة النائية وعدم اختلاطه
بالحضارات الاخرى الى التخلف عن بقية العالم فى ميادين
متعددة ، ولكنه كان صاحب حضارة مزدهرة فى مناطق معينة
على الاقل : فى المكسيك ، وأميركا الوسطى ، واجزاء من
أميركا الجنوبية ، وخاصة بيرو .**

**غير أن نقطة الضعف الكبرى فى هذا الشعب كانت أدوات
الحرب : فقد طور الغرب الاوروبى أسلحته قبل الفترة التى
غزا فيها الارض الاميركية ، الى مستوى كان يتيح له بسهولة
ابادة شعب لا يستخدم سوى اسلحة الصيد البسيطة .
وكان هذا التفوق فى التسليح أى فى صناعة القتل ، هو العامل
الاول لانتصار المستعمرين الاوروبيين على أصحاب الارض
الاصليين ومن المؤكد أن أميركا ظلت دائما تدرك بوعى تام
أهمية التفوق فى التسليح ، بدليل أنها مازالت
تفوق سائر بلاد العالم فى هذا الميدان الرهيب ،
ومازالت صاحبة « الفضل » الاول فى « تحسين » أدوات القتلى
والابادة ، وفى تطوير أنواع واجيال جديدة من الاسلحة ، وأرغام
العالم على مجاراتها فى هذا الميدان اللانسانى العقيم .
ولسنا فى حاجة الى أن نشير الى الاساليب البشعة**

التي أستخدمت في هذا التصادم بين حضارة طهوح تستهدف التوسع بأحدث وسائل الدمار المعروفة عندئذ ، وبين حضارة مسألة معزولة لم تكن تعمل أى حساب لليوم الذى سيهبط عليها فيه هؤلاء الغرباء المتفوقون ، بل لم تكن تتصور أنهم موجودون أصلا . ذلك لان أفلام الهنود الحمر ، على ما فيها من تشوية وقلب للحقائق ، كفيلة بالقاء الضوء على عملية الابادة الجماعية التي كان المستعمرون يمارسونها ضد كل من يقف في وجه توسعهم وأمتداد نفوذهم - تلك الابادة التي مازالت تؤرق ضمائر كثير من المؤرخين الاميركيين المنصفين حتى اليوم .

لقد كان الهنود الحمر شعبا أبيا ، لا يقبل الذل ، فقاوم بقدر ما يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن استأصلة الاميركيون من جنوره ، ولم تبق منه الا مجموعات قليلة تعيش في مستوطنات مقفلة معزولة تستغل في الأغلب لاغراض تجارية بوصفها متحفا بشريا حيا .

ولكنى أود ، قبل أن أترك هذا الموضوع أن أطرح على قارئى العربى سؤالا : ألم تستنتج من هذا الوصف لموقف الاميركيين من الهنود الحمر شيئا ؟ الا يذكرنا ذلك ، الى حد بعيد ، بموقف الصهيونية من فلسطين ؟ لقد كانت أميركا بدورها ، في نظر المستوطنين الاوروبيين الجدد ، أرضا بلا شعب ، وكان الوافدون من جميع أرجاء أوروبا ، الذين ضاقت بهم قارتهم القديمة أو ضاقوا بها ، والذين كان منهم تجار مغامرون ورجال دين متزمتون وأفاقون وأرباب سجون ومجرمون هاربون - كان هؤلاء يعدون أنفسهم شعبا بلا أرض .

كان كل شيء فى الارض الجديدة ممهد أمام طموحهم وأهدافهم التوسعية ، ولم تكن تعترضهم سوى عقبة « صغيرة » . هى ان فى هذه الارض سكانا ظلوا يعيشون فيها منذ ألاف السنين . اذن فلنتخلص منهم بسرعة ، ولنحاول بعد ذلك أن نسدل ستارا من الصمت والنسيان على تلك الحقيقة « الصغيرة » المزعجة ، لاسيما وان أنجازاتنا اللاحقة كفيلة بأن تبرر فى نظرنا ، وفى نظر العالم ، ماحدث فى تلك المرحلة الاولى ، المظلمة ، من تاريخنا . .

لقد أردت أن أجرى هذه المقارنة حتى لايشعر القارىء بالدهشة حين يجد أميركا تؤيد إسرائيل الى هذا الحد الذى يبدو أحيانا غير مفهوم . فالى جانب المصالح المشتركة والسياسة الرسمية ، هناك شيء فى نفس المواطن الاميركى يجعله متعاطفا مع الحجج الصهيونية ، اذ يرى فيها ترديدا لنفس الحجج التى قامت عليها بلاده ، والتى كان يستخدمها أجداده فى إبادة الهنود الحمر . فهناك عنصر مشترك قوى بين التكوين العقلى والنفسى للانسان الاميركى والانسان الصهيونى : هو الايمان بأن الارض ينبغى أن تنتمى الى من يعرف كيف يستغلها الى أقصى حد ، أما صاحبها الاصلى فليذهب الى الجحيم ، وهو أيضا الالتجاء الى القوة الغاشمة فى سبيل أقرار حق الاستغلال ، واستخدام التبريرات المعنوية فى وقت لاحق ، بعد أن تكون القوة المباشرة قد فرضت أمرا واقعا ، وهو الاعتقاد بأن من ينتمى الى حضارة أكثر تقدما ، بالمعنى المادى البحت للكلمة ، من حقه أن يعيش على حساب المتخلفين أو حتى فوق جثثهم . صحيح أن الفرق بين الصهيونى

والفلسطيني ، من حيث القدرة على أستغلال الارض ، ومن حيث التقدم الحضارى بوجه عام ، لايقارن بالفرق بين الاميركى المستوطن والهندى الاحمر ، بل أن التمييز - فى الحالة الاولى - يمكن الا يكون قائما على أى أساس ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع ، **وانما المهم أن الحجج التى تقدمها الايديولوجية الصهيونية الى العالم ، والتى تجد صدى خاصا فى نفوس الاميركيين ، ترتكز على فكرة التفوق الحضارى والقدرة على الانتفاع من موارد الارض ، الى أقصى حد ، وعلى الاقلال من شأن « السكان الأصليين » والدعوة الى نسيان وجودهم .**

أليس من المعقول ، والحال هذه ، ان تكون الصهيونية قادرة على الضرب على وتر حساس لدى المواطن الاميركى العادى ، وان يكون « الضمير الاميركى » على أتم استعداد للتوافق مع العقلية الصهيونية ؟ أيستطيع الاميركى العادى أن يقول للصهاينة : « ولكن الارض ليست أرضكم ، بل كان فيها شعب يمتلكها منذ عشرات القرون » . . . أيستطيع أن يقول ذلك دون أن يكون قد أدان نفسه فى الوقت ذاته ؟

ثالثا : ولانتقل - بعد هذا الانستطارد ، الذى هو مع ذلك ضرورى بالنسبة الى هدف بحثنا هذا - الى العامل الثالث الذى أتاح لاميركا أن تبلغ ما بلغت ، والذى يجعل من أميركا ظاهرة فريدة غير قابلة للتكرار . هذا العامل هو نظام الرق ، الذى تفشى فى أميركا على أوسع نطاق فى نفس الفترة التى كان فيها المستوطنون يبنون مجتمعهم الجديد ، والذى اسهم بنصيب هائل فى إثراء هذا المجتمع .

ولست فى حاجة الى أن أذكر القارىء ببشاعة الاساليب
التي كان يلجأ اليها تجار الرقيق لجلب أدميين مسالمين من
مواطنهم الاصلية فى أفريقيا لكن يعاملوا معاملة أسوأ من
معاملة الحيوانات فى البلد الجديد ، فى نفس الوقت الذى كان
فيه هذا البلد يقدم الى العالم « وثيقة حقوق الانسان » -
الابيض بالطبع ! ذلك لان القصة أصبحت الان معروفة ،
فى أغلب بلدان العالم العربى ، بفضل عمل من أروع الاعمال
الفنية التثقيفية الهادفة ، وهو مسلسل « الجفور »
التلفزيونى .

ولكن الذى يهمنى فى هذا السياق هو أن نشير الى أن
استغلال عمل ملايين العبيد الاشداء ، طوال أجيال كثيرة ،
بلا أى مقابل ، كان لابد أن يسهم بدور عظيم الاهمية فى
تحقيق نهوض اقتصادى سريع فى هذا البلد . لقد كان الجنوب
الزراعى كله ، والشمال الى حد ما فى البداية ، يعتمد على قوة
عمل العبيد المجانية فاذا ماتسائل شخص : كيف أحرز النظام
الرأسمالى هذا النجاح السريع فى أمريكا ؟ كان من الواجب أن
نرد عليه بما قاله أحد المفكرين الاميركيين المستثيرين وهو
يتحدث عن اثر استغلال عمل الزنوج فى الاقتصاد الاميركى :
اذا كان لديك تاجران متنافسان ، يعمل لدى احدهما عمال
لا يتقاضون أجرا طوال حياتهم ، على حين أن الاخر يدفع لعماله
أجورهم بانتظام ، فأيهما تكون فرصته أكبر فى الربح وفى
توسيع أعماله ؟

رابعا : كان موقع أميركا المنعزل ، الذى يفصله عن

بقية العالم محيطان شاسعان ، من أكبر عوامل تقدمها .
ذلك لان الحروب المتوالية قد مزقت سائر البلدان المتقدمة أو المؤهلة للتقدم فى أوروبا واسيا ، على حين أنها تركت أميركا سليمة لم تمس وعلى كل من يقارن بين المستوى الاميركى المرتفع وبين بقية دول العالم أن يسأل نفسه : **ماذا لو كانت أميركا قد ألقيت عليها قنابل ذرية كاليابان ؟**
أو أستنفذت مواردها المادية والبشرية فى حروب القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين الرهيبتين فى القرن العشرين .
كألمانيا وأنجلترا وفرنسا ؟ ماذا لو كانت أخصب أراضيها قد أحرقت ، وأعظم مدنها قد دمرت ، وثلاثون مليوناً من سكانها قد قتلوا ، كما حدث للاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية وحدها ؟

طوال تلك الحروب كانت أميركا آمنة من كل ضرر : فلم تسقط على أرضها قنبلة واحدة ، ولم يهدم فيها بيت واحد (اذا أستثنينا حرباً واحدة فى أواسط القرن الماضى ، وتلك كانت حرباً أهلية بين الشمال والجنوب الاميركيين) ، ولم تجد ما يدعوها حتى الى اطفاء الانوار ، على سبيل التحوط ، طوال الحرب العالمية الثانية .

بل أن أميركا لم تسلم من أضرار الحروب فحسب ، وإنما كانت الحروب بالنسبة اليها مصدراً هائلاً للربح ، وقوة دافعة ضخمة لاقتصادها . وفى الوقت الذى كان فيه الاوروبيون يقتتلون بضراوة ، كانت كل معركة جديدة ، وكل دماء جديدة تسيل ، تعنى مزيداً من الربح لمصانع الاسلحة الاميركية ، ووراء مصانع الاسلحة تأتي مئات الصناعات المساعدة

والمساندة ، وتعنى مزيدا من فرص العمل للعمال ومزيدا من التوسع والازدهار لاصحاب الاعمال . واقرب مثل الينا ذلك الاختلال الذى طرأ على بنية الاقتصاد الاميركى كله بعد انتهاء حرب فيتنام - وهى حرب محدودة ، بالقياس الى الحروب العالمية .

وهكذا لم يكن موقع أميركا البعيد ، المنعزل ، مصدر تأمين لها من ويلات الحرب فحسب ، بل أتاح لها أن تحول الحروب التى تدمر الآخرين الى رصيد إيجابى يزيد من قوتها ويضاعف ثراءها .

ما الذى نستدل عليه من هذا كله ؟ لقد كانت القضية التى نود إثباتها ، فى هذا الجزء ، هو أن أميركا ظاهرة فريدة لا تتكرر ، وان مجموعة العوازل التى تضافرت لكى تجعل أميركا أقوى واغنى دولة فى العالم كانت بالفعل عوازل لم يتح مثلها لاي بلد آخر . وهن هنا فان المقارنة بين أميركا وبين أى بلد آخر ، اذا كانت تأتى دائما لصالح الاولى ، فان ذلك يرجع أساسا الى أن الظروف خدعت أميركا على نحو يستحيل تحقيقه فى أية حالة أخرى .

ونحن لانعنى بذلك أن الشعب الاميركى قد وجد نفسه محظوظا بفعل مجموعة من المصادفات التاريخية الفريدة التى قدمت اليه القوة والثروة على طبق من ذهب . فمن المؤكد أن هذا الشعب قد بذل جهودا جبارة من أجل استثمار موارده . ولكن

كانت هناك أيضا شعوبا أخرى تبذل جهودا شاقة، دون أن تجنى مقابلها ثمارا معادلة ، لأن مجموعة الظروف التي تحيط بها غير مواتية ، ولأن الموارد التي تستغلها محدودة أو شحيحة أما في حالة أميركا فإن كل جهد يبذل كان كفيلا بتحقيق أعظم النتائج ، لأن كل شيء كان متوافرا .

وتترتب على هذه القضية نتيجة في غاية الأهمية : هي أن أميركا لاتصلح أصلا لكي تكون « نموذجا » . ذلك لأن من طبيعة الظاهرة الفريدة أن تحدث مرة واحدة ، والا تقبل المحاكاة . بل أنني سأفترض أفترضنا خياليا ، فأقول أن أميركا ذاتها لاتستطيع أن تكرر نفسها . فلو غرضنا أن قارة مثل أميركا قد أكتشفت في مكان ما من العالم ، في الظروف الراهنة، فإن من المستحيل أن يظهر فيها من جديد أقوى وإغنى مجتمع في العالم : لأن ظروف العالم الحالية لن تسمح لمستوطني هذه القارة بآبادة شعبها الأصلي بسهولة ، ولن تسمح لهم بجلب ملايين العبيد واستغلال قوة عملهم بلا مقابل ، ولأن وجود نظم اقتصادية وسياسية منافسة لن تتيح لهم حرية الحركة والتوسع والامتداد التي كانت متوافرة لهم في القرنين الأولين من تاريخهم .

الفصل الثالث

أميركا من الداخل

إذا كانت أمريكا ، كما بينا فى الفصل السابق ، ظاهرة لا تقبل التكرار ، ومن ثم لا تشكل نموذجا يمكن الاقتداء به فى مجتمعات أخرى ، فانا نود أن نثبت فى هذا الفصل أن الانسان الأمريكى بدوره نوع فريد من البشر ، وأن نمط الحياة التى يعيشها هذا الانسان لا يصلح أصلا للعالم الثالث ، وللانسان العربى بوجه خاص .

أن الانسان الأمريكى يتمتع ، دون شك ، بسعادة من نوع خاص . فهو - على وجه الاجمال - غنى ، تحيط به أحدث منتجات التكنولوجيا وأكثرها تطورا . وهو يستهلك بمعدل عال جدا ، يفوق أستهلاك الفرد الواحد فيه أستهلاك عشرات الافراد فى البلاد الفقيرة ، ويحيط نفسه بمجموعة من « المقتنيات » التى تحسده عليها معظم شعوب العالم .

وهو يشعر بأنه حر ، بل أنه ينتمى الى أكثر المجتمعات البشرية حرية . وبالفعل يعطيه الدستور ضمانات تؤمنه ضد تعسف السلطة ، ويمنحه حق التعبير عن نفسه ومحاسبة حكومته دون عائق ، ويكفل له اختيار ممثليه دون تدخل سافر ، وسحب ثقته ممن يسيئون استغلال سلطتهم حتى لو كانوا فى أعلى قمم جهاز الدولة . ويمتد شعور الانسان الأمريكى بالحرية

حتى يصل الى تفاصيل حياته الشخصية : فلدية حرية كاملة
فى اختيار نوع التعليم الذى يريد ، وليس هناك - نظريا -
أية حواجز طبقية تمنع أبناء الشعب من تلقى أرفع أنواع
التعليم . وهو حر فى اختيار الطبيب الذى يعالجه ، وفى
استطاعته ، لو شاء ، أن يتلقى الرعاية الطبية فى أعظم دور
العلاج وأرقاها . وهو حر فى اختيار صاحب العمل الذى يعمل
عنده ، وفى أن يغيره كما يشاء لو أتاحت له فرصة أفضل ، بل
ان الابن أو الابنة لهما الحرية فى ترك منزل العائلة والبدء فى
حياة مستقلة ، ماديا ومعنويا ، منذ اللحظة التى يشعران فيها
بالرغبة فى الاستقلال ، وهكذا . .

فاذا أضفنا الى ذلك عدم وجود رقابة حكومية على
الصحف ومصادر المعلومات ، كان من السهل أن نفهم ذلك
الشعور الحاد بالحرية ، الذى يتميز به الانسان الأمريكى .
والذى يؤمن بأنه هو السمة الايجابية الكبرى التى يتفوق بها
نمط الحياة الأمريكى على سائر أنماط الحياة المعاصرة .

هذه هى الصورة كما تبدو على السطح ، وكما يراها معظم
الامريكيين والمعجبون بنمط الحياة الأمريكى من بين أفراد
الشعوب النامية . ولكن وراء هذا السطح أعماقا خفية لاتدركها
العين للوهلة الاولى ، وان كان الوعي بها يزداد أنتشارا يوما
بعد يوم . ونحن أذ نركز حديثنا على ما وراء المظهر الخارجى ،
لانههدف الى تصيد الاخطاء أو أقتناص السلبيات ، وأما نود
قبل كل شىء أن نكمل الوجه الآخر للصورة ، وذلك فى إطار
الهدف العام الذى ننسعى اليه من هذا البحث ، وهو أن يكون

الانسان العربى رآيه عن النموذج الامريكى بطريقة موضوعية متكاملة .

* * *

ان الثراء الامريكى ليس مطلقا . ففى أمريكا فقراء بأعداد لا بأس بها ، وفيها عاطلون يشكلون نسبة من الايدى العاملة قد تصل احيانا الى العشر . وقد يرى البعض أن الفقير فى أمريكا أحسن حالا ، على وجه العموم ، من متوسط الحال فى معظم البلاد المتخلفة ، وهو أمر يمكن أن يكون صحيحا اذا ما نظرنا اليه نظرة إحصائية رقمية ، أما اذا تأملناه من منظور أنسانى فلن يعود السؤال الرئيسى هو : ما مدى فقر الفقير فى المجتمع الامريكى ؟ بل سيصبح : لماذا يكون هناك فقراء أصلا ، فى بلد يتمتع بكل هذا الثراء ؟ وبالمثل فان العاطل يحصل ، لمدة معينة ، على مبلغ من الضمان الاجتماعى قد يسد احتياجاته الضرورية ، ولكن المسألة فى هذه الحالة أيضا ليست مقدار هذا المبلغ ، وانما هى : لماذا يكون هناك عاطلون بالملايين ، فى أوقات الرخاء وفى أوقات الازمات على حد سواء ؟ وكيف يرضى المجتمع الامريكى بأن تكون ظاهرة البطالة جزء لا يتجزأ من بنيانه ، ومن نظام حياته ؟ ولماذا تظهر البطالة - على مستوى غير قليل - فى مجتمع يملك وسائل إنتاج هائلة وأماكن عظيمة للتوسع ؟ وما هو التأثير المعنوى للبطالة فى نفس الانسان ، بغض النظر عن تأثيرها المادى فى مستوى حياته ؟

ان التعليل المعروف لهذه الظاهرة هو أن المجتمع الذى يقوم على الاقتصاد الحر بأوضح صورته ، يحتاج الى وجود نسبة من العاطلين عن العمل كيما يساوم بهم ضد مطالبات

العمال المستمرة لرفع أجورهم • وهذا التعليل يفترض ، بالطبع ، أن العامل الانساني في الموضوع لا أهمية له ، أي أن احساس العاقل بالاحباط ، وعدم الامان ، والانهيال الناتج عن شعوره بأنه سيظل لفترة - لايدري الى متى تطول - أنسانا غير منتج في المجتمع ، كل ذلك لايدخل في الحسابان مادامت مصلحة الاعمال الاقتصادية (البيزنس) تقتضيه •

وهنا نضع أيدينا على نقطة أساسية من النقاط التي تميز مجتمع الثراء والوفرة هذا : هي اللا انسانية • وأنا لا أعنى بذلك أن الانسان هناك يحارب أو يضطهد في كل الحالات ، وإنما أعنى ببساطة أن الانسان « لايعمل له حساب » - فهو يأتي على الهامش ، بالقياس الى ضرورات الاعمال الصناعية والتجارية • والعلاقات الانسانية لاتدخل بوصفها عاملا يحسب حسابه عند اتخاذ قرار اقتصادي أو اجتماعي معين • (من المفارقات الساخرة أن العقل الامريكي هو الذي اخترع علما اسمه « العلاقات الانسانية Human Relations

وهذا العلم يتعلق بالجانب الاعلامي والاعلاني من الاعمال الاقتصادية ، والمتخصصون فيه يبحثون في كيفية التأثير في العمال والعملاء ، أي في المنتجين والمستهلكين ، وفي كيفية التعامل مع المنافسين أو المشاركين في الانتاج ، كل ذلك بهدف واحد أخير هو زيادة الربح الى اقصى حد ، أي أنه - بصريح العبارة - هو علم « العلاقات اللا انسانية » • وعندما تكون مصلحة الاعمال الاقتصادية (البيزنس) مهددة ، فان العوامل المجردة ، التي لاتقيم أي وزن لما هو أنساني ، هي وحدها التي

تؤخذ في الاعتبار • أنه شكل من أشكال قانون الغابة ، ولكنه منقول من صورته البدائية الى صورة شديدة التعقيد ، تلائم أعلى مراحل العلم والتكنولوجيا واعقد صور الانتاج •

هذا الشعور بانعدام الامان ، واحساس الانسان ، عن وعى أحيانا أو بلا وعى في الغالب ، بأن متطلباته النفسية والوجدانية خارجة عن نطاق العمل ، ولا يعمل لها حساب في جهاز الانتاج الجبار ، يخلق مناخا عاما من التعامل اللا أنساني بين البشر • ولا أود أن أطيل الحديث في موضوعات أصبحت الآن معروفة : كالقول مثلا أن نسبة الجريمة في المجتمع الأمريكي تعلو على نظيرتها في معظم المجتمعات الاخرى • ولكني أود ، في صدد مسألة كهذه ، أن أنبه القارئ الى ظاهرة قد لا يجدها واضحة في التحليلات الشائعة : وهي الارتباط الوثيق بين « شكل » الجريمة الأمريكية ، والطابع العام للمجتمع •

ففي العالم كله ترتكب جرائم ، والكثير منها بشع ، ولكن الجريمة في أمريكا لصيقة الى أبعد حد بالمجتمع الأمريكي ذاته : أنها أولا جريمة تكنولوجية على أعلى مستوى ، تستخدم فيها أحدث الاساليب والمعدات التي يقف أمامها أعنى اللصوص في مجتمعاتنا « المتخلفة » مشدوهين بلهاء • (من دواعي السخرية أن المسلسلات البوليسية الأمريكية تتباهى بالاساليب التكنولوجية الفائقة في عصريتها ، والتي تستخدمها الشرطة الأمريكية في القبض على المجرمين : من طائرات هليكوبتر وزوارق هائلة السرعة وأجهزة لاسلكية خفيفة وأدوات تحليل جارية وعقول اليكترونية تختزن المعلومات وتعيد تقديمها في

ثوان ، ومع ذلك فان صانعى هذه المسلسلات لا يدركون أن الشرطة لاتضطر الى استخدام هذه الاساليب العصرية المعقدة الا لان المجرمين بدورهم يستخدمون أساليب مماثلة ، أى لان المجرمين أعتى وأشد أجراما) . وهى ثانيا جريمة لا أنسانية : فنسبة جرائم القتل التى ترتكب بلا سبب ، أو لاسباب لايمكن أن تؤدى الى القتل فى المجتمعات الاخرى ، نسبة رهيبه . وهكذا تكون الجريمة صورة مصغرة للمجتمع : فى تكتولوجيته الرفيعة المقترنة باللا أنسانية .

أما ظواهر التعصب العنصرى ، الذى لاتزال اثاره باقية بوضوح ، وخاصة فى الجنوب الامريكى ، فأمرها معروف . وأما أدمان المخدرات ، وتفكك الاسرة وانحلالها وانعدام المشاعر الانسانية الحميمة فيها ، فتلك أيضا ظواهر أصبح الجميع على وعى بها ، وأصبح الكتاب الملتزمون فى أمريكا نفسها يحققون ناقوس الخطر بشأنها بلا أنقطاع . ولكن الشئ الذى أود أن أوجه اليه نظر القارئ العربى بالذات هو الطابع « العبثى » لهذه الظواهر فى المجتمع الامريكى : فالفنون الامريكية تقدم الينا كل يوم اعمالا تعرض فيها صراعات بين الاب و الابن مثلا ، ولكن المرء حين يتأملها جيدا لايرى « مشكلة » على الاطلاق ، ولو كان الموضوع الذى يدور حوله الصراع فى مجتمع شرقى مثلا ، لامكن حله بسهولة تامة ، دون أن يصاب أحد بعقدة مستعصية . وحين يتأمل المرء ظاهرة أدمان صغار المراهقين للمخدرات ، وأرتكابهم شتى أنواع الجرائم أو الرذائل فى سبيل « حقنة » من المخدر ، يشعر بأن المجتمع الذى يسيطر على مادة الطبيعة على أكمل وجه ، قد وقف عاجزا تماما

عن السيطرة على الانسان ، وأن الحق الكاملة التي يتسم بها
الانتاج المادى يقابلها تسبب كامل واختلال أساسى فى السلوك
البشرى :

* * *

ولكن ، ماذا نقول عن الاحساس بالحرية ، الذى يعده
الامريكى مفخرته الكبرى ، والذى وصل الى حد إطلاق أسم
« العالم الحر » على الاتجاه الايديولوجى الذى تتزعمه أمريكا ؟

* * *

أن فى بعض الضمانات الفردية التى يمنحها الدستور
الامريكى للمواطن ، وفى الاحساس بوجود « قانون » لا بد من
احترامه - قانون يسرى على الجميع ، ولايستثنى منه احد . .
فى هذا نموذج يمكن أن يتعلم منه الانسان العربى ، والحكومات
العربية ، الكثير ، لكن مع تسجيلى لاعجابى الخاص بهذا الجانب
من « الحرية » الامريكية ، فلا بد من تنبيه القارئ الى أن هذا
الحكم لايمكن اطلاقه دون تحفظات هامة .

* * *

ان القانون هناك يحترم حقاً ، والدستور لا يخرق ،
وعندما يحدث أنتهاك صارخ تكون العواقب وخيمة ، حتى لو
كان المنتهك أكبر رأس فى البلاد . هذا صحيح بلا شك ، ولكن
لنسال أنفسنا : من الذى يضع القانون هناك ؟ أن المؤسسات
الدستورية قائمة ، وهى تمارس عملها بكفاءة تامة فى إطار
الشرعية السائدة فى البلاد . ولكن ، من الذى يصل الى
السيطرة على هذه المؤسسات ؟ وما نوع القوانين التى يتوقع
من هؤلاء المسيطرين أن يصدروها ؟ :

فى الانتخابات الامريكية ، سواء على مستوى المجلسين المنتخبين (الكونجرس) أو محافظى الولايات أو رئاسة الجمهورية ، نجد نموذجا واضحا لطبيعة هذه الحرية الدستورية ، فكل شىء يتم بحرية كاملة ، ولا يمكن أن يحدث تدخل من جانب الحكومة لتزييف أرادة الشعب أو توجيه عملية الانتخاب لصالح مرشح معين . ولكن من المحال أن يكون أى شخص قادرا على ترشيح نفسه على نحو يعطيه أملا فى النجاح الا اذا كان منتميا الى طبقة الاثرياء ، أو عاملا فى خدمة طبقة الاثرياء ، لان النظام يجعل من المستحيل أن ينجح مرشح ، على أى مستوى ، ما لم ينفق على الدعاية أموالا طائلة . وليس هناك - خارج مجموعة قليلة من المفكرين الناقدين - من يطرح أسئلة مثل : لماذا تكون قوة الدعاية والاعلان عاملا أساسيا فى النجاح؟ ولماذا يعين كل مرشح ، حتى على مستوى أعضاء الكونجرس ، مكتبا كاملا للاتصال والعلاقات العامة والدعاية ، مهمته تحسين صورته أمام الناخبين ؟ وهل يعد النجاح الذى يتم أحرازه بفضل تدخل عامل كهذا ، مقياسا لحرية اختيار حقيقية لدى الناخبين ؟ والاهم من ذلك كله : مانوع القوانين التى سيصدرها مرشح كهذا حين ينجح ، وما هى المصالح التى سيدافع عنها فى هذه القوانين ؟ .

وتنطبق تساؤلات مماثلة على حرية الصحافة وسائر أجهزة الاعلام . فبالرغم من أن الرقابة الحكومية غير موجودة ، فان هذه المرافق مؤسسات تجارية فى أغلب الاحيان ، تستهدف الربح وتعتمد على أيراد الاعلانات ، ومن ثم فانها لاتستطيع أن تعبر عن سياسة مضادة لمصالح الشركات التى تقدم اليها

أموالها اللازمة عن طريق الاعلان ، ولو فعلت ذلك لكان أيسر السبل لتأديبها أو لاسكاتها هو حجب الاعلانات عنها .

وتتدخل المصالح التجارية ذاتها في ميادين كالتعليم ، حيث تدار أهم الجامعات على أساس تجارى ، وتعتمد أعمادا أساسيا على منح المؤسسات وهباتها ، ومن ثم كان لهذه المؤسسات دائما صوت فى إدارة سياستها . وإذا كان الشاب « حرا » فى اختيار نوع التعليم الذى يريده ، فما قيمة هذه الحرية اذا كانت نفقات التعليم باهظة ؟ وماقيمة حريتك فى اختيار طبيبك اذا كان المرض ذاته من أكبر المصائب التى يمكن أن تحل على الانسان ، نتيجة لما يتكلفه علاجه من نفقات باهظة ، وإذا كان اجراء عملية جراحية كارثة لمن كان دخله محدودا ، وإذا كانت نقابة اطباء الامريكية - وهى من أكثر الهيئات رجعية فى العالم - تقف بكل صلابة ، منذ عشرات السنين ، معارضة لاي نوع جاد من تأميم الطب ، أو حتى أى شكل من أشكال رعاية المجتمع لصحة الفقراء أو المسنين ؟ .

أن الامثلة لاحصر لها ، وكلها تدل على أن « الحرية » موجودة قانونا ، ومحترمة شكلا ، ولكن كل شىء يتم تحت السطح ، وبطريقة « قانونية » أيضا ، بحيث تفرغ هذه الحرية من مضمونها الحقيقى ، وتكون أطارا خارجيا يختلف عنه محتواه الداخلى كل الاختلاف .

* * *

أن تجاهل الاعتبارات الانسانية عنصر أساسى من عناصر نمط الحياة الأمريكى : فالهدف هو أن تدور عجلة الانتاج

بكفاءة ، وأن يزداد الربح وتتوسع الاعمال بلا أنقطاع . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف لايقام وزن للعوامل الانسانية ، بل ينظر أحيانا الى الاهتمام بها على أنه سمة مميزة للمجتمعات الأكثر تخلفا ، لان الكفاءة الصناعية والانتاجية ينبغي أن تكون لاشخصية ، مجردة .

هذه حقيقة أشار اليها الكثيرون ، واذا أكدناها فلن نكون قد أضفنا جديدا الى ما كتبه مئات الكتاب عن ضياع الانسان فى المجتمع الصناعى الضخم ، وعن طغيان قيم النجاح والتوسع والربح على القيم الانسانية ، ولكن ، فى هذا الوقت الذى يعرض فيه النموذج الأمريكى على الامة العربية بقوة والحاح بوصفه نموذجا ينبغي أن نأخذ به لكى نعوض تخلفنا ، وفى هذا الوقت الذى يتطوع فيه بعضنا للدعاية لهذا النموذج وغرسه فى عقولنا بكل قوة ، لابد لنا من أن نشير الى مفارقة غريبة تنطوى عليها الدعاية الأمريكية التى تهدف الى « بيع » نموذجه لبلاد العالم الثالث .

ذلك لان أمريكا تقدم نفسها على أنها حامية القيم المعنوية والروحية والانسانية ، وتكرس جزءا كبيرا من دعايتها لاثبات أن خصومها الايديولوجيين (المعسكر الاشتراكى) هم الماديون ، على حين أنها هى التى تتجاوز المادية وتعلو عليها . ولما كان هدفنا من هذه الدراسة هو القاء الضوء على النموذج الأمريكى ذاته ، فسوف نترك جانبا ما تقوله أمريكا عن خصومها ، ونختبر هذا النموذج من تلك الزاوية بالذات .

أن المفكرين المدافعين عن نمط الحياة الأمريكى يفخرون

بأنه يتيح للإنسان كل فرص الربح ، ويؤكدون أن دافع الربح أساسى فى الإنسان : فهو القوة المحركة التى تحفزه الى المزيد من العمل والتجديد والابتكار . وعلى الرغم من أن هذه القضية قابلة للنقاش على أوسع مدى ، وعلى الرغم من أن الإنسانية قد عرفت نظما تنادى بحوافز أخرى للعمل والمجهود ، غير حافز الربح ، كالسعى الى تحقيق مصلحة المجموع ، أو تحقيق الإنسان لامكاناته الخلاقة وما ينتج عنه من أرواء معنوى ، الخ . . . فاننا نود أن نتوقف عند نقطة واحدة : هى التناقض الصارخ بين تأكيد دافع الربح ، وبين أدعاء حماية المعنويات واتهام الخصوم بالمادية .

أن أمريكا ، وفقا لايديولوجيتها المعلنة صراحة ، لابد أن تكون أكثر المجتمعات مادية فى عالمنا المعاصر . وليس هذا اتهاماً وإنما هو اقرار لحقيقة بسيطة واضحة . فحين تقول ان حافز الربح هو القوة الدافعة الى العمل والابتكار ، وحين تتهم خصومك بأنهم لايعطون الإنسان فرصة كافية لكى يربح الى أقصى مدى تسمح له به إمكاناته ، يكون معنى ذلك أن فلسفتك مادية حتى النخاع ، وأن تشدقك بحماية المعنويات والروحانيات ليس نفاقاً فحسب ، بل هو تناقض صارخ يرفضه أبسط عقل منطقي . ان الإنسان هناك لايعمل الا من أجل المزيد من المال ، ومن الأرباح ، ومن المستوى المادى المرتفع وقد تكون هذه حقيقة من حقائق الحياة ، وقد يكون هذا هو بالفعل أقوى الحوافز التى ثبت ، حتى المرحلة الحالية من تاريخ البشر على الأقل ، أنها هى التى تحرك الإنسان الى الانتاج وبذل الجهد . هذا كله جائز ، ولكن ليست هذه هى القضية

التي أناقشها ، وإنما الذى أود أن أقوله ببساطة هو : إذا كنت من أنصار هذا الرأى فكيف تدعى أنك خصم للمادية ، وكيف تنصب نفسك حاميا للمعنويات وحارسا لانسانية الانسان ؟ هذا التناقض يمثل ، فى رأى ، خدعة من أخطر الخدع الفكرية التي تتعرض لها شعوب العالم الثالث . وعائنا أن نتنبه بكل وعى الى هذه المغالطة فى الوقت الذى يطرح فيه النموذج الأمريكى على الساحة العربية بقوة والحاح . ذلك لان مجتمعاتنا مازالت حريصة كل الحرص على وجود حد معين من القيم الانسانية والمعنوية ، ومازالت تؤمن بأن مايحرك الانسان ليس الماديات وحدها (رغم اعترافنا بأهمية الماديات) ، وبأن فى الانسان قوى تعلو على السعى المباشر الى الكسب والاقتناء . فاذا تقدمت اليها الدعاية الأمريكية على أنها هي التي ترعى هذا الجانب المعنوى فى الانسان ، واذا ظهر بيننا من يبدى أعجابه غير المحدود بالنموذج الأمريكى ، فلنقل له : فى استطاعتك أن تعجب بنمط الحياة الأمريكية كما تشاء ، ولكن عليك أن تعترف بأنك تسعى ، فى هذه الحالة ، الى إقامة مجتمع مادي بصورة صريحة مباشرة فى صميم كيانه ، وعلبك فى نهاية الامر أن تتحمل العواقب اللا انسانية المترتبة على هذا الجرى اللاهث وراء المادة ، وهذا التجاهل التام للجانب المعنوى فى الانسان .

الفصل الرابع

أميركا وقضايانا السياسية

منذ الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد ، أصبحت أمريكا طرفا في القضايا السياسية التي تقرر مصير الامة العربية . فطوال الفترة التي سبقت تلك الحرب ، كانت هناك قوى عظمى أقدم عهدا ، مثل بريطانيا وفرنسا تشغل القدر الاكبر من اهتمام العرب ، لانها كانت تمثل الاستعمار التقليدي ، أو قوى منافسة له ، تمثل شكلا جديدا من أشكال السيطرة يريد بسط نفوذه على العالم بالقوة العسكرية المباشرة ، كالمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية . وكانت المشاكل التي تعترض الفكر السياسي العربي ازاء هذه القوى الاستعمارية التقليدية واضحة وبسيطة : فالصراع بين الامة العربية والدول الكبرى كان ينحصر ، عذتذ ، في السعى الى الاستقلال الوطنى واخراج المحتل من الارض . ومن جهة أخرى فان المعسكر الآخر ، المنافس ، الموجود فى ذلك الحين لم يكن يقدم نفسه الى العالم العربى على أنه يمثل نظاما متكاملا للحياة والفكر والسياسة الاجتماعية والاقتصادية ، أى على أنه صاحب أيديولوجية تسعى الى الانتشار عن طريق الاقتناع ثم الاعتناق ، بل كان أقصى ما يغرى الآخرين أو يهددهم به هو أنه مجتمع عسكري قوى يحشد كل طاقاته من أجل الغزو والتوسع والحصول على مزيد من المجال الحيوى .

على أن تغيرا جذريا قد طرأ على هذه الصورة المبسطة المباشرة منذ الحرب العالمية الثانية فقد دخلت أمريكا الى المنطقة بكل ثقلها ، وكان تحقق الاستقلال الوطنى من الاستعمار التقليدى من أهم العوامل التى ساعدتها على التغلغل السياسى فى البلاد العربية ، بل أنها فى بعض الحالات ساعدت الدول العربية إيجابيا على تحقيق استقلالها الوطنى لكى تزيح الدول الاستعمارية القديمة وتفسح لنفسها مجال التغلغل فى المنطقة بأشكال جديدة ، ولاهداف جديدة . وفى الوقت ذاته لم تعد القوة المنافسة لأمريكا هى النظم الفاشية التى لاتمتلك شيئا تقدم به نفسها الى العالم سوى قوتها العضلية - أن جاز هذا التعبير - بل أصبحت أيديولوجية متكاملة ، قد تتخذ شكلا معتدلا هو الاشتراكية ، أو شكلا متطرفا هو الشيوعية ، ولكنها فى كل الحالات تقدم نفسها الى المنطقة باعتبارها بديلا جديدا يقدم حله الخاصة ، المتكاملة ، للمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوطنة فى مجتمعاتها . وكان على أمريكا ، أمام هذا المنافس الجديد ، أن تضاعف من جهودها من أجل صد التيار الايديولوجى المنافس لها من جهة ، واقتناع دول المنطقة بتفوق النموذج الأمريكى وصلاحيته للتطبيق فى مجتمعاتها ، أو على الأقل تخويفها من الخصم الايديولوجى الى الحد الذى يدفعها الى الاحتماء بأمريكا عسكريا وسياسيا .

وهكذا وجدت الدول العربية نفسها ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تواجه خيارا جديدا كل الجدة لم تألفه طوال العهود السابقة التى كان العدو فيها محددًا بوضوح ، وكانت طرق النضال فيها معروفة ومباشرة . فقد أصبح عليها أن تحدد

موقفها أزاء معسكرين متضادين ، لم يكن أى منهما يحتلها
احتلالا عسكريا مباشرا ، ولم يكن المنهج الذى يتبعه والهدف
الذى يسعى اليه أى منهما معروفا بوضوح لدى جموعها الشعبية
حتى أواسط القرن العشرين . وبعبارة أخرى ، فقد وجد العرب
أنفسهم يواجهون ، لأول مرة ، مشكلة الايديولوجية التى
أصبحت هى الطابع المميز لصراعات القوتين العالميتين
الرئيسيتين بعد الحرب العالمية الثانية . وكان جزء كبير من
الجهود التى تبذلها أمريكا من أجل التغلغل فى المنطقة العربية ،
يتخذ طابع الهجوم الايديولوجى على المعسكر المضاد ، والتبرير
الايديولوجى لاسلوبها الخاص فى الحياة .

ولكن ، لماذا سعت أمريكا الى التغلغل فى المنطقة العربية
بعد الحرب العالمية الثانية ؟ السبب الذى يعرفه الجميع ،
بالطبع ، هو البترول ، الذى كان قد ظهر بالفعل فى البلاد العربية
قبل تلك الحرب ، ولكن إمكاناته الهائلة فى المنطقة العربية ،
ودوره الحيوى فى مستقبل العالم الصناعى ، لم تظهر
بوضوح الا بعد الحرب العالمية الثانية . وبعبارة أخرى فان
العوامل التى كانت تدفع الدول الاستعمارية التقليدية الى
احتلال اجزاء من الوطن العربى ، كالموقع الجغرافى والسيطرة
على طرق برية أو بحرية حيوية ، الخ . لم تعد تحتل المكان
الاول فى سياسة الدولة الكبرى التى ورثت الاستعمار
التقليدى (وان كانت تلك العوامل قد ظلت تحتفظ بقدر غير
قليل من أهميتها) ، وإنما حلت محلها الرغبة فى السيطرة على
موارد مادة حيوية بدونها يتوقف نبض الحياة فى مصانع
العالم الغربى ، ويوجد أهم مخزون عالمى منها فى المنطقة
العربية .

على أن أمريكا ، فى سعيها الى بلوغ هذا الهدف ، كانت تحتاج الى وسيلة تختلف عن الوسائل التقليدية التى كانت تلجأ اليها الدول الاستعمارية السابقة . وسرعان ما أهدت الى تلك الوسيلة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، عندما حلت الموقف فى المنطقة العربية وظهرت لها الامكانيات الهائلة التى ينطوى عليها الطموح الصهيونى الى أنشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين . وسرعان ما تبنت قضية الصهيونية ، وساعدت بكل قوة على إقامة الدولة الاسرائيلية وعلى استمرار وجودها وتوسعها ، متخذة من هذه الدولة أهم أداة لها من أجل تحقيق هدفها فى السيطرة على المنطقة ، وعلى مواردها .



وهكذا يتبين لنا ، من العرض الموجز السابق ، أن بين العرب وأمريكا ثلاث قضايا رئيسية ، هى : الاختيار الايديولوجى ، والبترول ، واسرائيل .

وفى اعتقادى أن مناقشة هذه القضايا الثلاث كفيلة بالقاء الضوء على طبيعة العلاقة بين أمريكا والعرب على المستوى السياسى ، ومن ثم فإنها تعيننا على تحديد موقفنا من أمريكا على أسس فكرية أكثر رسوخا . وسوف نناقش هذه القضايا الثلاث بالترتيب الذى أراه منطقيا ، فنبدأ بقضية البترول ، ثم اسرائيل ، وأخيرا الايديولوجية .

● قضية البترول :

ليس من الصعب أن يستنتج المرء أن قضية البترول هى

القضية الاساسية والحاسمة فى تحديد موقف أمريكا من العرب ، وموقف العرب من أمريكا ، طوال الاعوام الثلاثين الماضية . صحيح أن هناك قضايا أخرى هامة تثيرها العلاقة بين هذين الطرفين ، ولكن تلك القضايا لاكتسب أهميتها الا بقدر تأثيرها - إيجابا أو سلبا - فى القضية الرئيسية ، وهى البترول .

وربما أعتقد المرء أن هذه القضية لا تؤثر الا فى علاقة أمريكا بعدد من الدول العربية فقط ، هى الدول البترولية ، ولكن الواقع أن الممارسات السياسية التى تقوم بها أمريكا مع الدول غير البترولية تستهدف بدورها هذه الغاية نفسها . فموقف أمريكا من مصر ، ومن اليمن الشمالى ، على سبيل المثال ، يتقرر الى حد بعيد على أساس مصالحها البترولية ، أى أنها حين ترسم سياستها أزاء هذين البلدين غير البتروليين تضع فى ذهنها أساسا تأثير هذه السياسة فى مصالحها البترولية . وأستطيع أن أقول ، بوجه عام ، أنه منذ اللحظة التى تبين فيها وجود البترول بكميات هائلة فى العالم العربى ، سواء من حيث مايستخرج منه أو ما يختزن فى جوف أراضيه ، ومنذ اللحظة التى أتضح فيها مدى اعتماد الاقتصاد الغربى كله على هذه المادة الحيوية ، تحدثت لأمريكا سياسة معينة فى المنطقة ، وأصبحت هذه السياسة جزءا لا يتجزأ من الاستراتيجية الأمريكية العامة فى العالم المعاصر .

والان ، ما هى الاهداف الرئيسية التى تسعى اليها أمريكا فى سياستها البترولية أزاء العرب ؟ الهدف الاول هو الربح .

وهذا هو الهدف المباشر ، والتقليدي ، فى كل مرة تعثر فيها دولة متقدمة تكنولوجيا وعسكريا على مادة خام ذات أهمية اقتصادية فى أراضى دولة أقل منها تقدما . فالشركات الامريكية تجنى أرباحا طائلة من كافة عمليات النقل والتأمين والتكرير والبيع ، الخ هذه قصة معروفة ، ولكنها تظل حقيقة ذات تأثير دائم ، اذ أن الحرص على استمرار الارباح وزيادتها يشكل عنصرا أساسيا من العناصر التى تأخذها أمريكا فى اعتبارها عندما تحدد سياستها أزاء أية دولة عربية ، أو أية حركة سياسية أو اجتماعية تظهر فى هذه المنطقة من العالم .

والهدف الثانى هو استمرار التدفق . وقد ظهرت أهمية هذا الهدف بالذات بعد الحظر البترولى المؤقت الذى مارسه العرب خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ . ومنذ ذلك الحين أصبحت أمريكا أكثر وعيا بأهمية هذا العامل الذى يمكن أن يشكل أداة ضغط رهيبه يمارسها العرب ضد المصالح الغربية بوجه عام . ومن هنا فقد حرصت على أن تفعل كل ما من شأنه الا يلجأ العرب الى استخدام هذا السلاح مرة أخرى ، ولم تتردد حتى فى اللجوء الى التهديد باحتلال منابع البترول اذا اقتضى الامر ذلك .

أما الهدف الثالث فى سياسة أمريكا البترولية فهو أن تحول - بكل الطرق الممكنة - دون أن يصبح البترول العربى أداة مضادة للمصالح الامريكية . مثال ذلك أن البترول لا ينبغي أن يؤدى الى أن يصبح العرب قوة اقتصادية قائمة بذاتها، تعتمد على نفسها وتنمو بصورة مستقلة عن أطماع الدول الكبرى، واذن

فلا بد من رسم السياسة التي تمنع العرب من أنتهاز الفرصة البترولية المتاحة لهم (لفترة زمنية قصيرة بالنسبة الى عمر الشعوب) من أجل احداث نهضة حقيقية في بلادهم . والوجه الاخر للعملة ، في هذه السياسة ، هو عمل كل ما من شأنه تحويل تلك الفرصة البترولية الى مصدر نفع للغرب بوجه عام ، وأمريكا بوجه خاص ، بدلا من أن تنفع أصحابها الاصليين .

هذه باختصار ، هي أهم الاهداف التي تسعى أمريكا الى تحقيقها في العالم العربي فيما يتعلق بتلك القضية الجوهرية ، قضية البترول ، ولما كان الكلام عن هذه الاهداف نسيأتني ، بشيء من التفصيل ، في آخر فصول هذه الدراسة ، فاننا سنكتفي الآن بذكر هذه الاهداف دون تعليق عليها ، وحسبنا أن نشير الى مسألتين جوهريتين تتعلقان بالجانب السياسي لقضية البترول :

المسألة الأولى هي أن التهديدات الامريكية بالاحتلال لا تعدو أن تكون عملية تخويف مقصودة . فهي تظهر دائما في مناسبات معينة ، وتسرب بطريقة مدروسة ، وتخدم أغراضا محددة بعناية . ولكن تنفيذ هذه التهديدات ، في ظروف العالم الحالية ، أمر يصعب في صعوبته الى حد يقرب من الاستحالة . ففي وقت الخطر ، ليس أسهل من قيام عمليات تخريب واسعة النطاق تعطل انتاج الآبار وقطرة الانابيب على النقل لمدد طويلة ، وهو أمر تعرفه أمريكا جيدا ، ولا تستطيع منعه لو تطلورت

الأمور الى الحد الذى يستدعى حدوثه . ومن جهة أخرى فان التوازن الدولى الدقيق ، وخاصة بعد سياسة الوفاق ، يمنع أمريكا من ممارسة هذه السياسة العدوانية فى منطقة قريبة كل القرب من حدود خصمها الرئيسى ، وهو الاتحاد السوفيتى : فقد تجاوز العالم الى غير رجعة تلك المرحلة التى كانت فيها الدول الكبرى تستخدم السلاح دون رادع من أجل أى بلد تطمع فى موارده الاقتصادية ، بل أصبحت كل دولة تعمل حسابا لعشرات العوامل قبل أن تقدم على أبسط خطوة عسكرية . ولو كنا فى القرن التاسع عشر ، لاحتلت أمريكا منابع البترول فى غمضة عين دون أن يوقفها أحد ، أما فى ظروف العالم الراهنة فان التهور العسكرى لم يعد ممكنا . وأوضح دليل على ذلك هو موقف أمريكا من أحداث ايران : فلو كانت فكرة الاحتلال المباشر قابلة للتنفيذ لكانت ايران أحق من غيرها بذلك ، ولكن التوازنات الدولية الدقيقة شلت حركة أمريكا عن التدخل ، وقدمت بذلك الى الثورة الايرانية خدمة كبرى .

أما المسألة الثانية فهى أن البترول ، مثلما أنه هو بيت الداء ، فهو أيضا أصل الدواء : لقد كان البترول هو نقطة البداية فى الاهتمام الأمريكى المكثف بالمنطقة العربية ، منذ فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان بالتالى هو العامل الأساسى الذى يكمن وراء كل التدخلات الأمريكية فى المنطقة . وكل السياسات التى تهدف فى

للنهاية الى أن تضمن دوران بلدان المنطقة فى حلقة النفوذ الأمريكى . فإذا شئت شعوب المنطقة أن تتحرر حقيقة من هذا النفوذ الأمريكى ، وأن تسير فى طريقها المستقل ، فلا بد أن يكون البترول احد المفاتيح الرئيسية التى تستخدمها من أجل الخروج من سجن التبعية والانقياد .

و حين أقول ذلك ، فأنا لا اعنى بالضرورة أن تقوم الدول العربية باستقزاز أمريكا ، أو الغرب ، بتروليا ، الى الحد الذى يدفع أمريكا الى المغامرة ، اعتمادا على العامل الذى أشرنا اليه منذ قليل ، وهو أن موازين القوى لا تسمح الآن بالتدخل العسكرى السافر . فمثل هذا التهور المتطرف ليس من مصلحة أحد . وكل ما اعنيه هو أن العرب يجب أن يقفوا بحزم فى وجه أية تدخلات سياسية أمريكية تتم بحجة تأمين الموارد البترولية التى لا يستغنى عنها الاقتصاد الغربى .

اننى أذهب الى حد القول بأن المصالح الأمريكية والغربية ، فى الميدان البترولى العربى ، لا يمكن أن تتعرض لتهديد حقيقى ، حتى فى أسوأ الظروف (من وجهة النظر الأمريكية) . ذلك لان أى نظام حكم عربى ، مهما كان تطرفه . لن يقطع البترول نهائيا عن الغرب . وحتى لو تحقق تأمين كامل ، فى جميع المراحل ، للصناعة البترولية ، فلا ينبغى أن يكون هذا ذريعة لتدخل أمريكا بحجة تأمين موارد البترول . ذلك لان التضاد بين التأمين والتأمين هو تضاد زائف ، مصطنع ، لسبب بسيط هو أن البترول سلعة لا بد أن تباع ، ولأن خصوم

أمريكا في الكتلة الشرقية لديهم ما يكفيهم وزيادة .
فأين يذهب البترول في هذه الحالة ، وهل يحتمل أن توقف
الدول العربية ، مهما كان تطرفها ، نموها الداخلي من
أجل معاكسة أمريكا ؟ هذه كلها افتراضات خيالية .
ولكن الشيء الحقيقي هو أن ما يتعرض للخطر في هذه الحالة
ليس الامداد بالبترول ، وانما هو شروط معينة للتعامل
في هذه السلعة الحيوية : فالخطر الذي تخشاه أمريكا ،
هو رفض الاستغلال والسيطرة واستمرار الانتاج بالمعدلات
التي تحتاج اليها السوق الغربية ، لا وفقا لاحتياجات
البلد المنتج من الدخل البترولي ، ولو قبلت أمريكا
التعامل مع الحكومات المنتجة - مهما كانت درجة تطرفها -
بشروط متكافئة ، لما أصبح هناك شيء مهدد ، ومعنى
ذلك ، باختصار ، هو أن التهديد بالاحتلال يرجع الى الرغبة
في استمرار الاستغلال ، لا في تأمين موارد مستمرة
من البترول .

واذن ففي القضية الأولى من القضايا السياسية التي
تطرحها علاقة العرب بأمريكا ، اعنى قضية البترول ،
تقف هذه الأخيرة موقف الطرف المتحكم الذي يستغل
قوته من أجل فرض شروطه الجائرة . وعلى الرغم من
أنه لا يتعرض لتهديد حقيقى ، فانه يلوح في أوقات
محددة مدروسة باستخدام القوة الغاشمة ، ويهدد
بالاحتلال ، لا لشيء الا لكي يحافظ على العلاقة غير
المتكافئة في التعامل بهذه السلعة الحيوية ، مما يشكل أسلوبا
في العلاقات الدولية عفا عليه الزمان ، ويضفى ظلالا
قاتمة على النموذج الأمريكى الذى لايزال يبهر الكثيرين !

الفصل الخامس

قضية اسرائيل

لابد لكل من يبهره النموذج الامريكى ، ويحلم بتحقيقه فى بلده العربى ، أن يواجه مشكلة أساسية ، هى التوفيق بين اعجابه المفرط بأمريكا ، وبين ما يعرفه عن الارتباط الوثيق بين أمريكا واسرائيل ، والذي يحدث عادة هو أن المعجبين بأمريكا يصورون هذا الارتباط بصورة مشوهة ، أو مخففة ، لا تعبر عن حقيقته ، وإنما تعبر عن رغبتهم - الواعية أو غير الواعية - فى الاحتفاظ بصورة نقية لأمريكا من جهة ، مع عدم التفريط فى موقفهم تجاه اسرائيل من جهة أخرى . وتدور هذه الصورة المشوهة عادة حول فكرة رئيسية ، هى ان الارتباط بين أمريكا واسرائيل مؤقت ، وأن فى استطاعة العرب ، لو أجادوا استخدام الأساليب السياسية والدبلوماسية ، ان يفكوا هذا الارتباط ، ويوجهوا السياسة الأمريكية نحو الانحياز لهم ، وان يضمنوا على الأقل وقفها على الحياذ ، بحيث نتخذ فى نهاية الأمر خطأ متوازيا بين الطرفين .

هذه الفكرة تحاول فى واقع الأمر ، ان توفق بين شيئين لا يمكن أن يتلاقيا ، وهما الحرص على ارضاء أمريكا من جهة ، والتصدى لاسرائيل من جهة أخرى . والواقع أنه ، اذا كانت احداث الأعوام الثلاثين الأخيرة

قد اثبتت شيئاً ، فهو أن الارتباط بين امريكا واسرائيل
ارتباط عضوى لا ينفصم ، واننا لا يمكن أن نكون جادين
لو حاولنا ان نحقق بصادقتنا لامريكا ، وان نقف
فى الوقت ذاته موقفا حازما فى وجه النزعة التوسعية
الاسرائيلية . فهذان موقفان لا يجتمعان وكل تجاربنا
السياسية الماضية تثبت ذلك :

فكل من يختار البديل الأول ، اعنى صداقة امريكا
وتأييد اتجاهاتها العامة وترك المجال أمامها لى تتغلغل
استراتيجيا واقتصاديا فى المنطقة ، لابد أن ينتهى
به الأمر الى موقف متهاون فى القضية الأخرى ، قضية
اسرائيل . وكل من يأخذ البديل الثانى مأخذ الجد ،
اعنى من يريد الوقوف بحزم وصلابة فى وجه الاطماع
الصهيونية ، لابد أن يصطدم ، بشكل أو بآخر ، بالمصالح
الامريكية ، وان يتخلى عن وهم الاستعانة بأمريكا من أجل
زحزة اسرائيل عن مواقفها .

هذه هى القضية فى شكلها البسيط ، الصريح ، الذى
لا يعرف الالتواء أو المواربة .



ان موقف امريكا من اسرائيل يرتبط ارتباطا جوهريا وأساسيا
بقضية البترول : ومنذ اللحظة التى ادركت فيها امريكا
خطورة الثروة البترولية الكامنة فى الارض العربية
على مصالح الغرب كله ، اقتصاديا واستراتيجيا ، اتخذت

قرارها الحاسم : وهو ان تقف الى جانب اسرائيل على طول الخط ، وان تحافظ على وجودها كما لو كانت ولاية امريكية ، أى كما لو كان الاعتداء عليها اعتداء على اراضى أمريكا ذاتها ، وان تؤيد جميع مطالبها ، مشروعة كانت أم غير مشروعة ، على حساب العرب .

وانى لأكاد أجزم ، عن طريق الاستنتاج وحده ، بأنه يوجد فى مكان ما من ادراج مكاتب صانعى السياسة الامريكية ، تقرير أو تخطيط استراتيجى أساسى وضع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، يوجه السياسة الامريكية الى تأييد اقامة دولة لاسرائيل على أرض فلسطين ، والى تبنى القضية الصهيونية ، والاعتماد على اسرائيل بوصفها الركيزة الكبرى للسياسة الامريكية فى المنطقة ، هذا التقرير لابد أنه يستند الى أساسين مترابطين :

الأساس المباشر هو أن اسرائيل خير ضمان لتدفق البترول العربى ، بإمكاناته الهائلة ، الى مصانع الغرب وشركاته .

والأساس غير المباشر هو أن وجود اسرائيل سيخلق مشكلة سياسية وعسكرية وحضارية كبرى لسكان المنطقة العربية ، تحتل مكان الصدارة فى تفكيرهم ، وتشغلهم عن قضاياهم الأخرى ، وتمتص طاقاتهم الاقتصادية وتوقف نمو بلادهم ، بحيث تظل فى حاجة دائمة الى العون

الخارجي ، والعون الامريكي بوجه خاص ، وبحيث ينتهي بها الأمر الى الاستعانة بأمريكا نفسها ضد اسرائيل ، أي بأمريكا ضد أمريكا ! .

وأكد أجزم بأن هذا التقرير الامريكي يحذر صانعي السياسة في هذا البلد من أن امكانات العرب البترولية يمكن أن تخلق في المنطقة العربية دولة كبرى في المدى الطويل ، وذلك اذا تجمعت الثروة البترولية مع ارادة الوحدة بين شعوبها ، واذا أمكن التوفيق بين ضخامة الموارد البشرية لبعض البلاد العربية (مصر مثلا) ، وامكانات الاستغلال الواسعة النطاق في بعضها الآخر (السودان والعراق مثلا) وتوافر الموارد المالية عند بعضها الأخير (البلاد البترولية) مثل هذه الدولة ذات الامكانات الضخمة يمكن أن تشكل خطرا جسيما على مصالح الغرب ، لانها ستوجه مواردها لخدمتها هي ذاتها قبل كل شيء ، وهن هنا كان لابد من الحيولة دون سير تاريخ المنطقة العربية في هذا الاتجاه .

وأكد أجزم أيضا بأن هذا التقرير قد انتهى الى أن هناك وسيلتين رئيسيتين لتوجيه الأحداث في المنطقة العربية على النحو الذي يحول دون اقامة هذه الدولة العربية القوية ، الموحدة ، الغنية ، المستنيرة :

الوسيلة الأولى هي اقامة اسرائيل كجسم غريب ، مدجج بالسلاح ، في قلب الارض العربية .

والثانية هي ادخال لعبة الانقلابات العسكرية فى الوطن العربى ، واخضاع أهم وأكبر شعوب المنطقة لانتظمة حكم أحادية الرأى ، أحادية الاتجاه ، تقمع كل معارضة ، وتتخذ من الاستمرار فى الحكم هدفا يعلو على كل هدف آخر .

ولو تأملنا الارتباط الوثيق بين هاتين الوسيلتين ، والتوافق الزمنى العجيب بين قيام دولة اسرائيل ووقوع أول انقلاب عسكرى فى المنطقة ، لادركنا الى أى حد نجحت امريكا فى تنفيذ هذا المخطط الاستراتيجى الأساسى .



على أن الأمر الذى أود أن أؤكد ، فى هذه الدراسة ، بوضوح قاطع ، هو أنه لم يحدث حتى الآن ما يدعو امريكا الى تغيير هذه الاستراتيجية الأساسية . فهناك كثيرون ، فى وطننا العربى ، على استعداد للاعتراف بأن الخط السياسى العام لامريكا كان يسير فى هذا الاتجاه ، ولكنهم يعتقدون أن هذا الخط قد تغير فى السنوات الأخيرة . وسبب هذا التغير ، فى رأى هؤلاء ، هو تبنى بعض الدول العربية خطا معتدلا ، مما جعل امريكا تشعر لأول مرة بإمكان حفظ مصالحها فى المنطقة العربية عن طريق العرب أنفسهم ، دون الحاجة الى الاستعانة باسرائيل وحدها ، أو باسرائيل قبل غيرها .

وفى رأى أن هذا الاتجاه مخطئ فى أساسه ، وأن الخط

العام للسياسة الامريكية فى الشرق الأوسط ، الذى يتخذ من اسرائيل الركيزة الكبرى لهذه السياسة ، مازال قائما ، بالرغم من مظاهر التغير السطحية التى يفسرها البعض خطأ بأنها تحول جوهري .

أما الأسباب التى استند اليها فى هذا الرأى الذى أدافع عنه فهى :

أولا : ان اسرائيل تنتمى حضاريا الى الغرب . فهى قطعة من حضارة الغرب اقحمت بالقوة على أرض عربية . وكل باحث فى الحضارة الغربية يجعل من « العبرانية - المسيحية » أو من عقيدة « العهد القديم والعهد الجديد » ، أصلا أساسيا من أصول هذه الحضارة . وعلى الرغم من كل التقلبات التى مرت بها علاقة الاقليات اليهودية بالمجتمعات الغربية التى تعيش بينها ، فان رواد الصهيونية ، وأهم الوافدين الى اسرائيل ، وأبرز زعماء الدولة الجديدة ، كانوا ينتمون فى صميمهم الى الحضارة الغربية ، وكانوا غرباء ، عقليا ونفسيا وثقافيا ، عن المنطقة التى أصبحوا يعيشون فيها .

ثانيا : أن النظام الذى طبقه اسرائيل فى بلادها يتفق أساسا مع النظم الغربية . فأسرائيل دولة رأسمالية ذات أهداف توسعية . ومهما قيل من وجود تجارب ذات لون « اشتراكي » فى الظاهر ، كالكيبوتز وغيرها ، أو عن المنظمات العمالية الضخمة ، كالهستدروت ، فان هذه

التنظيمات تدين أساسا بالأيديولوجية الغربية الرأسمالية ،
وتدافع عن مصالحها بكل قوة ، وأحزاب الأغلبية
فيها تسير وفقا لبرامج تنظر الى اسرائيل على انها جزء
لا يتجزأ من المعسكر الغربى الرأسمالى ، بل على انها عضو
شديد التطرف فى هذا المعسكر .

ثالثا : ان اسرائيل ، بنظامها الغربى الليبرالى ، هى النظام
الوحيد المستقر فى المنطقة . وليس المقصود بالاستقرار
هنا - كما يفهمه بعض العرب - أن تكون هناك حكومة
واحدة تظل متربعة على كرسى الحكم وتتقن فن
الامساك بزمام البلاد والحيلولة دون وصول أى منافس
الى السلطة ، بل ان المقصود به هو أن اسرائيل ، شأنها
شأن معظم الدول الغربية المتقدمة ، قد اهتمت منذ وقت
طويل الى الصيغة التى تجعل انتقال دفة الحكم من
جماعة سياسية الى أخرى يتم بطريقة سلمية ، منظمة
بدون انقلابات أو اراقة دماء ، أى انها اهتمت الى
الصيغة التى عجزت جميع الدول العربية عن الاهتداء اليها
حتى الآن ، وهى أن يتغير الحاكم بهدوء عندما تتخلى عنه
الارادة الشعبية ، ويترك مكانه لغيره مغادرا قصر الحكومة
سائرا على قدميه الى بيته ، لا محمولا الى قبره أو منقولا
فى عربة سجن أو - اذا كان سعيد الحظ - مشحونا على طائرة
حربية تقله الى خارج البلاد .

وهكذا فان اسرائيل من وجهة نظر المصالح الامريكية ،

هى وحدها المضمونة • ومن الواضح أنه لم يحدث ،
طوال الأعوام الثلاثين الماضية ، أى شىء يدعو أمريكا
الى إعادة النظر فى العوامل الثلاثة السابقة التى تدفعها
الى الاعتماد الكامل على إسرائيل •

ولكن ، قد يتساءل البعض : ألم يحدث فى السنوات
الأخيرة بالذات تغيير فى اتجاه أمريكا ازاء هذه القضية ؟ •

نعم ، حدث نوع من التغيير ، ولكنه تغيير تكتيكى
فقط • فى السنوات التى توالى منذ انشاء دولة إسرائيل ،
كانت أمريكا تتخذ من إسرائيل حارسا مسلحا لمصالحها ،
وكانت الحروب الدائمة التى تشنها إسرائيل على العرب
هى الوسيلة التى تحقق لأمريكا أهدافها البعيدة
والقريبة فى المنطقة • أما فى السنوات القريبة فقد
لاحت بوادر تكتيك آخر : فبدلا من ان يضطر العرب الى
تخصيص مواردهم المتزايدة لمحاولة الحد من انتشار هذا
السرطان المخيف فى جسم الارض العربية ، وبدلا من أن
يهملوا مشاكلهم الملحة تحت تهديد السلاح الأمريكى
المقدم الى إسرائيل ، أصبحت السياسة الأمريكية تتجه
الآن الى دفع العرب الى الدخول باختيارهم فى معسكر
أمريكى واحد ، الى جانب إسرائيل ، وحلت أساليب الوعد
والاغراء محل أساليب التهديد والتخويف ، وظهرت بوادر
تعطى أمريكا أملا فى أن يقبل العرب بالتدرج ، وبمحض
ارادتهم ، ما لم يكونوا يقبلونه قبل ذلك الا تحت تهديد
السلاح •

التكتيك اذن هو الذى طرأ عليه التغيير ، أما الاستراتيجية العامة فتظل على ما هى عليه : حماية المصالح الامريكية عن طريق ركيزة أساسية هى اسرائيل ، وكل من يقبل التعاون معها لتحقيق هذا الهدف .

* * *

فى ظل هذه الاستراتيجية تظل مصالح امريكا مرتبطة ارتباطا لا ينفصم باسرائيل ، أما الدول العربية فان امريكا تحرك جيدا أن المصالح الحقيقية لشعوبها تتعارض معها ، ومن ثم فانها لا تعتمد عليها الا بقدر ما تسير حكوماتها على سياسة مغايرة لآمانى شعوبها ، وهو أمر تعلم امريكا حق العلم انه لا يمكن أن يستمر الى ما لا نهاية ولذلك كان اعتمادها على أى نظام عربى أو تحالفها معه مؤقتا بطبيعته مهما طال أمده ، وكان دائما ثانوى الأهمية بالقياس الى اعتمادها على اسرائيل .

وعلى أساس التحليل السابق يتضح لنا أن هناك خطأين أساسيين فى أسلوب تعامل العرب مع امريكا ، فيما يتعلق بالقضية الاسرائيلية :

الخطأ الأول هو استخدام السلاح الامريكى ، اذا كان الهدف الحقيقى من هذا السلاح هو أن نحارب به اسرائيل . ذلك لأن امريكا هى المورد الرئيسى لأسلحة اسرائيل . ولما كانت مصالحها متطابقة معها تطابقا تاما ، فمن العبث ان نتصور انها ستتقدم اليها من السلاح ما يكفينها للوقوف

بحزم فى وجه المطامع الصهيونية • فكل قطعة سلاح تعطى للعرب ، لابد ان تعطى أضعافها لاسرائيل ، فضلا عن أن التسليح عن طريق امريكا لابد أن يكشف لاسرائيل ، من خلالها حليفتها الكبرى ، عن مدى قوة العرب ومواطن ضعفهم أول بأول ، مما يتيح لها أن تجرى حساباتها معهم على أدق الأسس الممكنة •

ان المنطق السليم وحده يكفى لاقناعنا بأن استيراد السلاح من امريكا من أجل محاربة اسرائيل عملية مفاوضة لذاتها • ولعل فى موقف امريكا من مصر ، فى مناسبتين مختلفتين ، ما يؤكد هذه الفكرة بكل وضوح :

(أ) فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، عندما كان السلاح المصرى غير امريكى ، حرصت امريكا ، بعد أسبوع الانتصارات الأولى ، على أن تعوض اسرائيل عن خسائرها وتضمن تفوقها فى أكبر وأسرع عملية نقل للسلاح عرفها التاريخ ، وكانت حجة كيسنجر هى أنه لا يمكن أن يسمح للسلاح الروسى باثبات تفوقه على السلاح الامريكى ، ولكن السبب الحقيقى هو أن امريكا - وفقا لاستراتيجيتها الأساسية - لا يمكن أن تسمح بتفوق حقيقى للعرب على اسرائيل ، ولا بد أن تجعل لاسرائيل اليد العليا فى أية معركة مع العرب •

فاذا كان هذا تصرف امريكا فى معركة لم تكن فيها هى

التي وردت السلاح للعرب ، فماذا يكون تصرفها لو كانت هي التي توزع بنفسها الأسلحة على الطرفين ؟

(ب) وفي الأونة القريبة لم توافق امريكا على توريد أسلحة لمصر على نطاق واسع الا بعد معاهدة ٢٦ مارس مع اسرائيل ، أى انها لم تقبل تقديم أسلحتها إلينا الا بعد ان ضمنت أن هذه الأسلحة ستستخدم لأغراض أخرى ، غير محاربة اسرائيل .

ويبدو لى أن هذا المبدأ الأخير هو الذى تفترضه امريكا فى حالة أى بلد عربى يطلب منها السلاح على نطاق واسع ، بحيث لا توافق على هذا الطلب الا بقدر ما تكون واثقة من أن لهذا السلاح اهدافا أخرى غير اسرائيل .

أما الخطأ الثانى فهو الاعتقاد بأننا نستطيع أن نفكك التحالف بين امريكا واسرائيل ، أو نضعفه عن طريق اقناع امريكا بأن مصالحها مع العرب أهم من مصالحها مع اسرائيل فهذا النوع من التفكير يفترض عدة أشياء ، كلها باطلة :

فهو يفترض أولا أن العرب يمكنهم أن يخدموا المصالح الامريكية دون أن يتهاونوا ويتخلوا عن أمانى شعوبهم ، أى أن من الممكن أن تتطابق مصالح العرب مع مصالح امريكا ، وهو أمر يدخل فى باب المستحيلات . وهو يفترض

ثانيا ان امريكا تقبل بأن تجد لنفسها حليفا أو حارسا لمصالحها غير اسرائيل ، وهو بدوره أمر مستحيل .
وكل ما قلناه في هذا الفصل انما كان محاولة لاثبات استحالة هذين الافتراضين .

وهكذا نتضح لنا الصورة على حقيقتها : فقد يكون في امكاننا أن نستعين بأمريكا في أمور كثيرة ، ولكن ليس في صراعنا مع اسرائيل . ذلك لان من يستتجد بأمريكا لكي تعينه على الوقوف في وجه اسرائيل هو ، كما يقول المثل العربي البليغ ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، أو كمن يستعين بزعيم العصاة ليحمي نفسه من تهديدات عضو صغير من أعضائها - عضو له حقا مطامعه الجزئية الخاصة ، ولكنه في نهاية الأمر يآتمر بأوامر الرئيس ، ولا يستمد كيانه الا من انتمائيه اليه .

الفصل السادس

قضية الايدولوجيا والتنمية

طوال هذه الدراسة ، حاولت بقدر ما استطيت أن أتجنب الألفاظ والمصطلحات الضخمة ، وأن أعرض أفكارى للقارئ من خلال لغة عادية خلت من تلك التعبيرات المعقدة التى اعتادها مثقفوننا ، والتى قد تصلح فى مناقشاتهم الداخلية ، ولكنها حين تستخدم فى مخاطبة الجماهير العريضة تؤدى الى فجوة واسعة بين المثقف وجمهوره ، لا يملؤها الا فراغ من عدم التفاهم .

لذلك فاننى حين استخدم كلمة « ايدولوجيا » فى عنوان هذا الفصل الأخير ، لا أود من القارئ أن يتصور أننى خرجت أخيرا عن هذه القاعدة ، وخضعت آخر الأمر لعسادات المثقفين فى استخدام الألفاظ الرنانة . فالأيدولوجيا كما تستخدم هنا ، لا تعنى أكثر من مجموعة الأفكار الأساسية التى تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم أو الموقف الأساسى الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وأمانيه فى المستقبل .

ومن الطبيعى ، فى هذه الحالة ، أن يكون هناك ارتباط وثيق بين الايدولوجيا - مفهومه بهذا المعنى - وبين قضية التنمية . فالتنمية ليست مجرد « نمو » ، كما قد يوحي أصل اللفظ ذاته ، وانما هى مسيرة شاملة تسترشد فى

سعيها الى التقدم بأفكار رئيسية توجهها ، ومن واجب كل من يتصدى لعملية التنمية في مجتمعة أن يجيب عن أسئلة أساسية مثل : مصلحة من تقيم هذه التنمية ؟ وهل تكون التنمية اقتصادية فحسب ؟ أم تشمل المجال الاجتماعي والثقافي بدوره ؟ وما نوع المجتمع الذي نريد أن نحققه عن طريق هذه التنمية ؟ **ولو أمعن المرء التفكير في هذه الأسئلة ، لوجدها كلها أسئلة ايديولوجية ، أي أسئلة تتعلق بمجموعة الأفكار التي يرسم بها المجتمع طريقه في الحياة .** ومن هنا كانت التنمية التي تقوم على أساس رأسمالي ، مثلا ، مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي تهدف الى اقامة مجتمع اشتراكي ، لأن الاختيار الايديولوجي الذي تركز عليه التنمية مختلف في الحالتين .



على أساس هذه المقدمة الواضحة ، نود أن نعالج الآن آخر الموضوعات التي سنعرض لها في هذه الدراسة ، وهو في الوقت نفسه ربما كان أهم موضوعاتها جميعا : فالنموذج الأمريكي مطروح اليوم ، بقوة والحاح ، على العالم العربي بوصفه نموذجا مثاليا للتنمية . وانصار هذا النموذج يؤمنون بالايديولوجية الأمريكية ، ويعتقدون أن الأسس التي تركز عليها تصلح للانطباق على المجتمعات العربية ، بل إنها هي التي تحمل في طياتها امكانيات حل المشكلات المزمنة التي تعاني منها مجتمعاتنا . فما مدى صحة هذا الاعتقاد ؟ .

في معالجتنا لهذا الموضوع الحيوى ، لابد أن ننظر
اليه من زاويتين مختلفتين ، هما زاويتا البلاد العربية
الغنية والفقيرة ، لان مشكلات التنمية فى كل منهما تختلف
فى نواح كثيرة .

١ - الدول الغنية :

هناك أسباب كثيرة تجعل الدول الغنية أكثر من غيرها
تعرضا لاغراء النموذج الأمريكى فى التنمية ، وأكثر من
غيرها ميلا الى اختيار الايديولوجية الأمريكية . ولعل
فى واقع الثراء ذاته ، وارتفاع مستوى الدخل القومى
والفردى ، ما يفسر هذه الظاهرة الى حد بعيد .
فالأيديولوجية التى تسير أمريكا وفقا لها تفتح الباب
على مصراعيه أمام فرص الاثراء ، ولا تضع حدودا لما
يمكن أن يملكه الفرد ، على حين أن الأيديولوجية المضادة
التي تحاربها أمريكا تحدد من فرص الامتلاك وتضع
مصالح المجتمع كضوابط وحدود لما يمكن أن يحرزه الفرد
من ثروات .

ومع ذلك فان من واجبنا ان ننفذ بنظرتنا الى ما وراء السطح
الخارجى للظواهر ، وأن نتساءل : هل يصلح نمط
التنمية الذى تشجعه أمريكا للانطباق على البلاد
العربية الغنية ، وهلى يؤدى هذا النمط الى خدمة المصالح
الحقيقية لشعوب هذه البلاد ؟

لكى نجيب عن هذا السؤال لابد لنا من الاشارة الى
ثلاث حقائق أساسية :

الأولى : هي ان ثروة البلاد العربية ، فى وضعها الحالى ،
توظف - فيما يتعلق بفوائضها ومخزاناتها على الأقل -
من أجل خدمة الاقتصاد الغربى ، وعلى رأسه الاقتصاد
الامريكى وعلى الرغم من كل الروابط المتينة ، سياسيا
واقتصاديا وتعليميا وثقافيا ، الخ ٠٠٠ بين الدول العربية
البتروولية وبين أمريكا ، فان هذه الأخيرة لم تسهم فى
وضع أى برنامج يساعد الدول الغنية على الانتفاع
من أموالها فى ارساء دعائم اقتصاد داخلى متين ، معتمد
على ذاته ، قادر على مواجهة الظروف التى ستجد عندها
تنضب موارد البترول :

هذه حقيقة مألوفة ، نقرأ عنها فى صحفنا كل
يوم ، ولكنها تظل - بالرغم من ذلك - شيئاً يدعو الى
التأمل العميق : فكيف تكون هناك كل تلك الروابط الوثيقة
بين البلاد العربية البتروولية وبين أمريكا ، دون أن تحاول
هذه الأخيرة مساعدة الأولى فى الافادة من امكاناتها
الاقتصادية الهائلة ، أى نوع من النموذج أو من المثل
الذى تضربه تلك الدولة الكبرى فى علاقتها بدول صغيرة
تحتاج الى الافادة من تجارب الآخرين كيما تشبىق
لنفسها طريقا مستقلا ؟ ، أليس ذلك هو نموذج الاستغلال
فحسب - أعنى الاستغلال الذى يخدم مصالح الطرف

القوى ولا يكثر بالمطالب الحيوية البعيدة الأمد للطرف
الضعيف ؟ ولماذا لا تساعد أمريكا الدول العربية البترولية
على وضع برنامج للتنمية توظف فيه معظم فوائدها
المالية فى الداخل ، بدلا من أن تودعها فى بنوك غربية
وأمرىكية لخدمة اقتصاد هو أصلا قوى معتمد على
ذاته ؟ أليس هذا دليلا على التعارض بين النموذج الأمريكى
وبين أبسط متطلبات المستقبل لدى الدول العربية
الغنية ؟

والحقيقة الثانية هى أن أمريكا لا تكتفى بالافادة من
فوائض الأموال العربية لخدمة مصالحها الخاصة ، ولا تكتفى
بالامتناع عن الاسهام فى أى برنامج شامل يضمن للدول العربية
الغنية مستقبلا مأمونا ، بل أنها تضع نصب أعينها
استنزاف الثروة البترولية العربية فى أسرع وقت ممكن ،
دون أية مراعاة لحاجات البلاد المنتجة ، فآية محاولة
لخفض انتاج البترول الى الحد الذى يتمشى مع المطالب
الحقيقية للبلاد المنتجة ، تلقى مقاومة من الطرف الأمريكى ،
لأن ما يحرص عليه هذا الطرف هو سد حاجات الاقتصاد
الغربى ، وليس مراعاة مطالب المنتجين على الاطلاق .

ولو قيل ان هذا أمر لا مفر منه ، لأن فى الغرب مصانع
لا بد لها أن تعمل ، وهى تحتاج الى كميات يومية هائلة
من البترول - لو قيل هذا لقلنا أن هذه حجة غير ملزمة
بلى الاطلاق ذلك لأن الغرب لا يريد أن يغير نمط حياته ، الذى

ينطوى على قدر هائل من السفة والتبديد ، والذي يستهلك فيه المواد الخام فى العالم ، وليس البترول وحده ، الى حد أصبح يثير قلقا حقيقيا لدى كل من يفكر فى مستقبل البشرية بشىء من التعمق . ولقد اشترى الغرب نهط حياته الباذخ هذا ، منذ ان كان يملك السيطرة العسكرية الى أن استعاض عنها بالسيطرة الاقتصادية ، على حساب شعوب العالم الثالث . فاذا كانت هذه الشعوب الأخيرة تعيش حياة الكفاف ، وتنقصها ضرورات الحياة الأساسية ذاتها ، ومع ذلك تظل تعمل وتكافح دون أن تشكو ، فلماذا لا تتنازل الشعوب الغربية المترفة عن قدر من رفاهيتها لكي تحقق مزيدا من التوازن بين اقتصاديات مناطق العالم المختلفة ؟ الذى يحدث بطبيعة الحال هو أن هذه الشعوب تقبل أى حل - حتى لو كان هو التدخل العسكرى ذاته - فيما عدا المساس بمستوى معيشتها المرتفع ، ومن ثم فانها تستنزف ، من بين ماتستنزفه ، موارد البترول بسرعة تفوق كثيرا ما تحتاج اليه الدول المنتجة ذاتها ، وبذلك تكون عاملا معوقا فى وجه تنمية هذه الدول .

والحقيقة الثالثة هي أن الدول الغربية الصناعية ، وعلى رأسها أمريكا ، تحرص على أن تنتشر فى الدول العربية الغنية عادات استهلاكية متطرفة ، تحقق لها عدة أهداف ، ولكنها تعود على أصحابها بأوخم الضرر :

(أ) فالاستهلاك الزائد يعود على الدول الصناعية

الكبرى ذاتها بالنفع المباشر . وكلما انتشرت بين الشعوب العربية الغنية عادات الترف ، والشراء بسبب وبغير سبب ، وتغيير طراز السلع والأجهزة الاستهلاكية بلا انقطاع واقتناء أحدث المنتجات أولا بأول ، مع التخلص من القديم بلائثم ، كان معنى ذلك مزيدا من النفع لأصحاب المصانع ، ومزيدا من التورط والادمان الاستهلاكي لدى المشتريين .

(ب) والأخطر من ذلك أن هذا الاستهلاك المفرط يفسد أذواق هذه الشعوب ويشوه شخصيتها بالترف الزائد ، الذي يصل في كثير من الأحيان الى حد التبديد ، ويساعد على تنشئة أجيال اعتادت سهولة العيش حتى أصبحت تعزف عن بذل أى نوع من الجهد أو المعاناة . ووجود هذه الرغبة الطاغية فى الحياة السهلة ، التى يأتى فيها كل شىء جاهزا بلا مجهود ، يتعارض بطبيعة الحال مع متطلبات التنمية التى ينبغى أن تعتمد فيها الشعوب على نفسها وتبذل فى حاضرها جهودا تقيها شر الحاجة فى المستقبل .

(ج) وربما قيل ان شعوب الدول الصناعية الكبرى تستهلك بدورها على نطاق واسع ، دون ان يؤدى ذلك الى فقدانها حماسة العمل وبذل الجهد . ولكن شتان ما بين الحالتين :

فالشعوب الصناعية قد مرت بتجربة الاختراع والابداع

بالنسبة الى كل ما تستهلكه . وهي قد عايشت التليفزيون منذ أن كان وميضاً خافتاً على شاشة باهتة الى أن أصبح أفلاماً ملونة وربما مجسمة ، وعاشت السيارة منذ أن كانت عربة خيل مطورة الى أن أصبحت صالوناً فاخراً سريعاً صامتاً . أما الشعوب الغنية المستهلكة في بلاد العالم الثالث ، فلا تعرف هذا الانتاج الا في صورته النهائية ، ولا تتعامل معه الا عن طريق استعماله فحسب . وهي لم تعايش تجربة اختراع ولم تمر بمعاناة التطوير والتجويد ، ومن ثم فان دلالة الاستهلاك عندها ، وتأثيره في شخصيتها ، مختلفة كل الاختلاف .

من هذه الحقائق الثلاث يتضح لنا أن نمط التنمية الذي تشجعه أمريكا في الدول العربية الغنية يؤدي بهذه الدول الى أن تنعم بحلم وردى سريع ، ولكنه يترك الواقع الذي سيعقب هذا الحلم دون معالجة على الاطلاق . ومن هنا كان واجب هذه الدول ألا تنساق وراء هذا النمط ، وأن تحرك الفوارق بين أوضاع أمريكا وأوضاعها الخاصة ، والاختلاف الكبير في نموذج الحياة الاستهلاكية ونتائجها لدى مجتمع تكنولوجي متقدم ، ولدى مجتمع يعاني من مشكلات التخلف بالرغم من امتلاكه ثروة مؤقتة .

٢ - الدول الفقيرة :

إذا كان نمط الحياة الاستهلاكية ، الذي يفتح الأبواب

على مصراعيها لمنتجات البلاد الصناعية المتقدمة ، لا يصلح للبلاد العربية الغنية ، فمن السهل أن ندرك أنه أقل صلاحية للبلاد العربية الفقيرة . فحين تتخذ هذه البلاد الأخيرة من النمط الأمريكى نموذجا ، وحين تحاول أن تقلد أسلوب الحياة الأمريكى ، متصورة أن هذا الأسلوب سيجعل عندها كما نجح فى بلده الاصلى ، فإنها تقع فى وهم كبير ، وتسقط فى هوة سحيقة قد يكون من الصعب عليها أن تنتشل نفسها منها لأمد بعيد .

ذلك أولا لأن البلد الفقير أقل قدرة من البلد الغنى ، بطبيعة الحال ، على استيعاب أدوات الترف الاستهلاكى . والنتيجة الطبيعية لذلك هى تشجيع فئة محدودة جدا على الاستثمار السريع الربح فى تجارة السلع الاستهلاكية واستيرادها ، وفئة أخرى أكبر قليلا من السابقة ، ولكنها بدورها محدودة ، على اقتناء هذه السلع . أما القاعدة الشعبية الواسعة فسوف تنظر بحسرة إلى القلة المحظوظة ، وسوف تتضاغط معاناتها ، لأنها تجد أمامها نماذج صارخة للاستهلاك السرفى من جهة . ولأن أعباء المعيشة سيزداد ثقلا عليها ، من جهة أخرى ، نتيجة للتصعيد المستمر فى الأسعار ، الذى تحدثه تصرفات تلك القلة المحظوظة .

ومن المستحيل معالجة موقف كهذا عن طريق التبشير

بفلسفة « مجتمع الأسرة الواحدة » بين أفراد المجتمع الفقير : ذلك لأن فلسفة « الأسرة الواحدة » ينبغي أن تكون التزاما من كلا الجانبين : فكما تطالب الفقير بالأحقاد على الغنى أو يتمرد ضده ، ينبغي أن تطالب الغنى بالأحقاد على الفقير وتمرده . ولكن الذى يحدث هو أن فلسفة « الأسرة الواحدة » ، فى هذه المجتمعات الفقيرة ، لا تتذكر سوى التزامات الفقير وحده ، أى التزامات طرف واحد من أطراف « الأسرة الواحدة » ، بينما تتغاضى تماما عن التزامات عضو الأسرة الغنى تجاه « أقربائه » الجياع !

إن النموذج الأمريكى يدعو إلى ترك نشاط الأفراد ، فى الميدان الاقتصادى ، يسير فى طريقة حرة ، دون أن تقف فى وجهه أية قيود ، ودون أن تكون هناك حدود لتوسعه ونموه . ومن الجائز أنه كان لهذه الدعوة ما يبررها فى ضوء ظروف أمريكا الفريدة ، التى عرضناها فى الفصول السابقة : فقد كانت قلة البشر ، وضخامة الموارد ، وأمكانات الاستثمار الهائلة ، والطبيعة المغامرة للوافدين ، كانت هذه كلها عوامل تشجع على إطلاق العنان للنشاط الفردى حتى يصل إلى أقصى مداه .

وقد أصبح هذا الاتجاه جزءا لا يتجزأ من البناء الفكرى للمجتمع الأمريكى : فمنذ أكثر من مائتى عام ، نجد الإعلان الأمريكى لحقوق الإنسان يتضمن ، بصورة واضحة انتقادا لفكرة تدخل الدولة إلا فى أدنى الحدود . وهكذا فإن أية دعوة إلى التأميم ،

أو التخطيط المركزى الموجه للاقتصاد أو التعليم أو الثقافة أو الخدمات الصحية ، تلقى مقاومة هائلة • ومازالت عبارة جيفرسون القائلة : « ان افضل الحكومات هي أقلها حكما » - مازالت تعد شعارا سياسيا رئيسيا لقطاعات كبيرة فى المجتمع الأمريكى •

حسنًا ، هذه على أية حال فلسفة أمريكا الخاصة ، وهى فلسفة نجحت (برغم تحفظاتنا الكثيرة عليها) فى ضوء الظروف الخاصة والفريدة لهذا المجتمع • ولكن مشكلة أمريكا ، بعد أن أصبحت القوة العظمى فى العالم المعاصر ، هى أنها لاكتفى بالدعوة الى هذه المبادئ داخل حدودها ، وإنما تبذل كل ما فى وسعها لكى تطبقها على أكبر عدد من دول العالم ، بغض النظر عن ظروفها وأوضاعها الخاصة •

ان بلاد العالم ، حتى الكثير من الدول الغنية ، تتجه على نحو متزايد الى تأمين مرافق وخدمات أساسية فى المجتمع ، كالتعليم والصحة والمواصلات والاذاعة ، الخ

ذلك لأن التطور التاريخى يثبت صعوبة تطبيق مبدأ « الحد الأدنى من تدخل الحكومة » فى معظم مجتمعات العالم • وحين نتأمل البلدان الفقيرة بالذات نجد هذا المبدأ مستحيل التطبيق • فعندما تكون الموارد محدودة ، والسكان متزايدين ، يكون معنى عدم تدخل الدولة هو ترك الفرصة أمام السمك الكبير لكى يبتلع السمك الصغير • وكما أن الاسرة ذات الدخل المحدود تحتاج ، لكى تستمر فى الحياة ، الى تدبير دقيق لميزانيتها ولأوجه الانفاق فيها ،

ولا تملك ترف التساهل أمام رغبات الأفراد المتباينة ، فكذلك تحتاج البلاد الفقيرة الى توجيه وتخطيط لمواردها المحدودة ، كيما ينتفع بها على أفضل نحو ممكن ، والا كانت الكارثة ، التي تتمثل في انتعاش أوضاع القلة الضئيلة ، وشقاء الملايين من أبناء الشعب .

واثن ، فالنموذج الأمريكى أبعد ما يكون عن الانطباق على مجتمع فقير محدود الموارد .

وهذا أمر لاحتاج فيه الى تفكير عميق ، لأن النتائج العملية ذاتها تثبتته على نحو قاطع . ففي كل حالة يطبق فيها هذا النموذج بلا تمييز في بلد من بلاد العالم الثالث الفقيرة ، تكون النتيجة أخفاقا ذريعا . خذ أوثق الدول صلة بأمريكا ، وأكثرها اقتداء بها : كدول أمريكا اللاتينية ، أو تركيا ، أو فيتنام الجنوبية فيما مضى ، أو تايلاند ، أو ايران في عهد الشاه . . هل نجح النموذج الأمريكى ، في حالة واحدة من هذه الحالات ، في بناء مجتمع تسوده العدالة وينال فيه كل أنسان - وخاصة من الطبقات الفقيرة - نصيبه المعقول من ثروة المجتمع ؟ ألا تشترك هذه المجتمعات كلها في وجود تفاوت صارخ بين طبقاتها ، وعدم التوصل الى حلول لمشكلاتها الأساسية ، والعجز عن النمو والاستثمار الرشيد لمواردها ، وسيطرة أساليب القمع من أجل تغطية المظالم الفادحة ؟

هذه هي الأمثلة التي نلمسها بأنفسنا ، وهي تقدم اليها . نحن العرب - وخاصة الفقراء منا - أيلغ دليل على أن النموذج

الأمريكي الذي يفتتن به بعضنا ، عاجز تماما عن حل مشاكلنا ،
وأن نجاحه في بلاده ليس على الإطلاق دليلا على أنه يمكن أن
ينجح في ظروف مختلفة كل الاختلاف .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه عند هذه النقطة هو :
هل تجهل أمريكا هذه الحقائق ؟ هل هي بلد مثالي ، توجد لديه
كل النوايا الطيبة ازاء الآخرين ، ولكن سوء حظه هو الذي يجعله
فاشلا دائما مع الآخرين ؟ ان المسألة ، بالطبع ، أبعد ما تكون
عن ذلك . فأمريكا تعلم تمام العلم أن نظامها لا يصلح الا لها ،
وأنه في حالة البلاد الفقيرة بالذات يؤدي الى الفشل التام .
ولكنها ، ببساطة ، لا تكثرت بما يحدث للآخرين .

أنها تسلك بطريقة برجمانية (وهي كلمة تعبر عن
الاتجاه الفلسفي المسيطر على الفكر والسلوك الأمريكيين ،
وتعني ببساطة : البحث عن النجاح العملي ، بغض النظر عن
المبادئ ذاتها) فقد كانت ، في ايران مثلا ، ترى الفقر المدقع
والظلم الفادح والثراء الفاحش جنبا الى جنب ؛ ولكنها لم
تهتم ، وانما ركزت جهودها على التحالف مع الحاكم ومع
طبقة المنتفعين المخيطة به ، وشجعتة على التماذي في
استبداده وتجاهل مطالب شعبه ، بل هي التي علمت زبانيته كيف
يتقنون فنون التجسس والتعذيب وانتزاع الاعترافات ، الخ .
ومادام الحاكم قادرا على أن يحكم قبضته على شعبه بيد من
حديد ، ويقوده رغما عنه الى طريق يحقق مصالحها هي ، فلا
يهم على الإطلاق ماذا يحدث لهذا الشعب .

ولكن عبرة التاريخ البليغة تثبت لنا أن الانقياد للذمودج
الامريكى يقود **الحكام أنفسهم** ، لاشعوبهم المغلوبة على أمرها
فحسب ، الى الهاوية • فكيف ينظر المسئولون الامريكيون الى
كارثة الشاه بعد حدوثها ؟ أنهم نادمون لأنهم لم يتنبهوا الى
قوة المعارضة ، ولم يتداركوها فى الوقت المناسب ، ولم يساعدوا
الحاكم الطاغية على التخلص منها • ولكننا لم نسمع اعتراضا
من مسئول امريكى واحد على السياسة التى يتبعها الشاه ،
ولم نلمس لدى أحد منهم ندما على أنهم تركوه يطغى ويستبد
ويستبيح أموال شعبه دون أن يقدموا اليه نصيحة تخفف من
غلوائه • ومعنى ذلك أن الحاكم ، حتى حين يعادى شعبه فى
سبيل المصالح الأمريكية ، لا يجد من أمريكا مساعدة الا على
التمادى فى الطغيان ، ولا يلقى منها أى توجيه يرده الى صوابه
أن يقلل من امعانه فى الظلم • وبالاختصار فان أمريكا تجر
أصدقاءها حتما الى الهاوية • وهذه - كما أدرك بعد فوات
الوان حكام تهاوت تيجانهم فى الاونة الاخيرة - عبرة لمن
يعتبر ...

أعود ، فى نهاية هذه الدراسة ، فأقول أن المسألة ليست
على الاطلاق مسألة أخلاقية :فليست أمريكا ، فى عالمنا المعاصر ،
هى الفتى القوى الشرير ، الذى يجر أصدقاءه معه الى هاوية
الفساد ، وانما الموضوع فى أساسه موضوع نظام لايملك الا أن
يسير فى هذا الطريق ، لأنه هكذا بدأ ، وهكذا نما وتوسع ،
وهكذا يتحتم عليه أن يصير :

أن أمريكا ، بحكم تكوينها ومصالحها الحيوية ،
لاستطيع إلا أن تكون كذلك • أما نحن فما زالت أمامنا فرصة
بلاختيار • وليس هناك على الإطلاق ما نرغمنا على أن نختار
طريقا ثبت لنا أنه لن ينفع بلادنا الغنية ولا الفقيرة ، ولن
يوجه من ينقاد له إلا إلى طريق الهاوية •

يضم كتاب دار الفكر المعاصر :

- قاموس المصطلحات الادبية - اعداد ابراهيم فتحى
- فترة التوافق ، ليلة السحلية - مسرحيتان لتنسى ويليامز
ترجمة وتقديم فاروق عبد القادر
- الخروج من الظل (شعر) - فؤاد قاعود
- أقوال جديدة عن حرب البسوس (شعر) - أمل دنقل
- الفكر المعاصر (مختارات) العدد الثانى
- نقد العقل الوضعى : : دراسة فى الأسس المنهجية
لفكر زكى نجيب محمود عاطف أحمد
- فن تجميل الوجه - مختار سالم

وفى سلسلة الكراسات :

- (٧) أزمة الفكر البرجوازي العربى - صلاح عيسى

7 730
4927
216a



0646071